

الفصل الثانى

الفتح الإسلامى للسند والبنجاب

- * علاقات شبه القارة الهندية ببلاد العرب قبل الإسلام.
- * المحاولات الأولى للفتح زمن الخلفاء الراشدين.
- * الحملات الإسلامية فى العصر الأموى.
- * محمد بن القاسم يفتح بلاد السند والبنجاب.
- * انتشار الإسلام فى السند والبنجاب.

علاقات شبه القارة الهندية ببلاد العرب قبل الاسم

انقسمت شبه القارة الهندية فى القديم إلى قسمين جغرافيين كبيرتين هما بلاد السند والبنجاب وبلاد الهند، وتضرب هذه البلاد بجذورها فى أعماق التاريخ، فهى من البلاد ذات الحضارات القديمة بل الموهلة فى القدم.

وقد دلت الحفريات والكشوف الأثرية التى قامت بها بعثة مارشال سنة ١٩٢٢ والتى أسفرت عن العثور على مدينين قديمتين بغرب بلاد السند هما "مهنجوذارو" و"هربا" دلت على وجود حضارة هندية يرجع تاريخها إلى عصر بناء الأهرام، وتمتد فى أغوار الزمان - مثلما تمتد الحضارة اليونانية والعراقية - إلى آلاف السنين قبل ميلاد المسيح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويفصل البحر بلاد الهند هذه عن الجزيرة، ولهذا كان من الطبيعى أن يكون البحر هو أول حلقة اتصال بين بلاد العرب من ناحية وبلاد الهند والسند من ناحية أخرى، وقد قامت الصلات التجارية بين الجانبين منذ آلاف السنين قبل الميلاد، فكانت القوافل تأتى بتجارها إلى بلاد الهند. بل استقر بعض العرب فى مناطقها الساحلية واندمجوا فى أهلها، كما حمل العرب منتجات شبه القارة الهندية، وثمارها إلى بلادهم الأصلية، بل حملوها إلى أوروبا عن طريق مصر وبلاد الشام ونقلوا التجارات الأوربية والعربية إلى الهند والصين، بل ذهب البعض إلى أن الروابط العربية الهندية ترجع إلى زمن سيدنا سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - فقد كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند.

وعندما فتح المسلمون بلاد فارس واستقروا بها، استمرت العلاقات بين بلاد السند وبين الجزيرة العربية عن طريق بلاد فارس، ويذكر المسعودى أن القافل التجارية كانت متصلة بين خراسان وبين الملتان بإقليم البنجاب وبينها وبين المنصورة بإقليم السند، ونص عبارته "وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان" والسند مما يلى

بلاد المنصورة والملقان والقوافل متصلة من السند إلى خراسان وكذلك إلى الهند ويذكر ابن الفقيه فى كتابه "البلدان" أن البضائع الإيرانية كانت تصل إلى بلاد السند من خراسان فمن أراد السند أخذ من ناحية فارس على سيراف "ويقول" الاصطخرى "فى المسالك والممالك" أن الببل السندية ذات السنامين كانت تصدر إلى خراسان وفارس وغيرها "هذا الفالج (الجمل ذو السنامين) الذى يحمل إلى الأفاق بخراسان وفارس وسائر البلاد التى يكون بها البخاتى إنما يحمل منهم.

لقد كانت التجارة العربية مع الهند تسير برا من مصر والشام على ساحل البحر الأحمر إلى اليمن، ثم تبدأ الرحلة البحرية عن طريق حضر موت وعمان والبحرين إلى كراتشى، أو عن طريق المحيط الهندى إلى موانى الهند، ولما جاء الإسلام استمرت صلة الهند قوى بالعرب، وهناك كلمات من اللغة الهندية موجودة فى القرآن الكريم مثل مسك وزنجبيل وكافور، وقد أهدى بعض ملوك الهند للرسول ﷺ، جرة فيها زنجبيل فأطعم ﷺ أصحابه منها.

ولأن نشاط العرب نشاط تجارى، فإن لنا أن نتوقع أن يقتصر اتصالهم على السواحل الهندية التى كانوا يعرفونها جيدا، ويعرفون المدن الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب، كما كانوا ينطلقون من هذه البلاد إلى ما وراءها، فيذهبون إلى خليج البنغال وبلاد الملايو وجزر أندونيسيا.

وقد بقيت بعض الموانى الهندية التى اشتهرت منذ العهد العربى محتفظة بأسمائها حتى الآن مثل ميناء تيز بإقليم مكران، وميناء الديبل ببلاد السند، وميناء تانة (تهانه) وكهمبانت وسوبارة وجيجو فى إقليم كجران ببلاد الهند، ومن هذه الموانى كانت سفن التجار العرب تتجه إلى ميناء البنغال وموانى الجزر الهندية وميناء القامرون (كامروب)، وتستمر فى سيرها حتى تصل إلى بلاد الصين، وقد ذكر الجغرافيون العرب هذه الموانى ووصفوها فى كتبهم.

وفكرة العرب عن الهند أنها بلاد وافرة الغنى والثراء "بحرها در وجمالها ياقوت وشجرها عطر" حسب وصف واحد من الأعراب وقد استورد العرب من

الهند الأقمشة والعاج والذهب والفضة والعملات الذهبية، وأنواع التوابل والسكر والأرز والمسك وجوز الهند وغيرها" وقد تبارز المقاتلون بسيف الهند البتارة، وتعطرت النساء بعطورها ورفلن في حريرها وازين بلألئها، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا غمور الهند وفيلها في المعترك" وصدر العرب لبلاد الهند الجلد المصبوغ والدقيق وتمر البصرة وخمرة العراق، والزمر من مصر، والخيول العربية الأصلية، والعود الذى كان يستخدم فى المعابد السنديّة.. على غير ذلك.

باختصار كانت هناك علاقات تجارية بين العرب وبين سكان الهند والسند منذ آلاف السنين، وقد أقام بعض التجار العرب فى الموانئ والمدن الساحلية الهندية واستوطنت جاليات عربية هناك قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد، كذلك كان هناك هندو أقاموا بين العرب وأخذوا عنهم لغاتهم وتعلموا لسانهم، وعرفوا بينهم واشتهروا بألقابهم مثل الزط والميد والتكاكرة.. إلخ.

الهدف من السطور السابقة بيان وجود علاقات متينة بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، وأن العرب قد عرفوا هذه البلاد ومارسوا التجارة معها واستقرت التجارة معها واستقر بعضهم فيها خاصة على سواحلها، فإذا أدركنا ذلك ووضعنا فى الاعتبار طيبة الرسالة الإسلامية وأنها دعوة عامة أرسل الله بها محمدا ﷺ، للناس كافة، مصداقا لقوله عز وجل «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» "الأنبياء: ١٠٧"، «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا»، وقول النبي ﷺ - "كان النبي يبعث لقومه خاصة وبعث للناس عامة، إذا عرفنا ذلك واستحضرنا ما قام من علاقات بين الشعبين قبل الإسلام، تصونا أنه كان من الطبيعى أن يفكر المسلمون فى تبليغ كلمة الله إلى سكان هذه المناطق.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو:

هل ترجع محاولات تبليغ الدعوة الإسلامية لسكان شبه القارة الهندية إلى زمن رسول الله ﷺ؟

الواقع أننا أمام روايتين: الأولى منهما تقول إن النبي ﷺ أوفد رسله إلى الملوك والحكام في زمنه، وأرسل بعض أصحابه إلى "سرباتك" حاكم "قنوج" بالهند وأن هذا قد أسلم على أيدي هؤلاء الصحابة، ولكن الحافظ "ابن حجر" يضعف هذه الرواية، ويعلق عليها بقوله: "زعم أن النبي أنقذ إليه حذيقة وأسامة وصهيبا يدعونه إلى الإسلام، فأجاب وأسلم وقبل كتاب النبي ﷺ، وقد قال الذهبي في تجريد أسماء الصحابة، إن هذه الرواية كذب واضح.

أما الرواية الثانية: فتذكر أن خمسة من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين قد وصلوا إلى بلاد السند، وإن اثنين منهم رجعا وبقى ثلاثة، وتضيف أن النبي ﷺ قد أرسل كتابه إلى أهل السند مع هؤلاء الخمسة وأنهم لما جاءوا إلى هذه البلاد نزلوا في قلعة يقال لها "نيرون" ثم رجع اثنان بعد أن أظهر أهل السند الإسلام وبقى الثلاثة هناك يبينون لهم الحكم حتى ماتوا بتلك البلاد.

والقواقع أن الكتاب الذي وردت فيه هذه الرسالة غير معروف وقد استبعدتها تماما الإمام السيوطي.

ومن هنا لا يمكن الاطمئنان إلى وصول صحابة يحملون دعوة الإسلام إلى شبه القارة الهندية زمن رسول الله ﷺ.

وعندما تولى الخلافة أبو بكر الخلافة أبو بكر الصديق رضى الله عنه، أقر أبا العلاء الحضرمي على ولاية البحرين، أحد مراكز التجارة العربية الهند والصين، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - جعل أبا هريرة واليا على هذه البلاد، فلما كانت سنة ١٥ هجرية أسند منطقة البحرين إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان عثمان هذا قد أسلم في السنة التاسعة من الهجرة وعندما وقف أمام رسول الله ﷺ مع وفد ثقيف الطائف، لمس فيه النبي ما يتمتع به منميزات فأقره حاكما على الطائف وبقى كذلك حتى جاء عمر - رضى الله عنه فنقله من ولايته وولاه عمان والبحرين سنة ١٥هـ، والثابت أنه أول من طرق الهند من ثلاث جهات.

١ - فى عهد الخلفاء الراشدين

قام عثمان بن أبى العاص الثقفى والى عمان والبحرين بإعداد ثلاث حملات بحرية، وقد تولى بنفسه قيادة واحدة منها اتجهت إلى ناحية "تهامه" عاصمة إحدى محافظات ولاية مهاشتر الجديدة الآن، وتقع على بعد ٣٢ ميلا من مدينة "بومباى" الحالية، بينما توجهت الثانية يقودها أخوه الحكم بن أبى العاص الثقفى نحو ميناء "بهروج" على الساحل الهندى شمال إقليم "سورت" ببلاد الهند الحالية، أما الثالثة فقد تولى أمرها أخ ثالث اسمه "المغيرة بن أبى العاص الثقفى، ويممت شطر "الديل" الذى يغلب على ظن المتخصصين أنها كانت ميناء، موقعه قرب ميناء "كراتشى" الحالى فى جمهورية باكستان.

وكان الهدف من هذه الحملات الإعداد لفتح تلك المناطق، وتأديب قراصنة الهند والسند الذين كانوا يغيرون على السفن التجارية وينهبون ما تحمّل من بضائع، ويتخذون من موانئهم قواعد لمهاجمة بعض مناطق الدولة الإسلامية فى الخليج العربى، بالإضافة إلى محاولة معرفة بلاد السند واختبار طاقة القوة العربية والتوصل إلى أى مدى يمكن الاعتماد عليها فى فتح هذه البلاد مستقبلا، وأيضا أراد المسلمون تأديب ملك السند انتقاما لما حدث منه أثناء معركة القادسية سنة ١٦هـ = ٦٣٧م، عندما زود ملك الفرس بالمال وبالسلح وأعاناه فى حربه مع المسلمين وتأديب بعض المرتدين ومن أيدهم من رجال القبائل الذين هربوا إلى هذه البلاد بعد فشل حركتهم زمن الصديق رضى الله عنه.

ويبدو أن هذه لم تكن حملات منظمة هدفها الاستقرار، وإنما هى حملات أولية أقرب إلى فريق استطلاعية هدفها الاستكشاف والتعرف وجمع المعلومات عن هذه البلاد، وقد اعتمدت على المتطوعين من المسلمين ذوى الأصل الهندى خاصة، ولعل من بينهم قبائل (الزط) المعروفين بالمهارة فى التجارة والزراعة،

والذين يقال أن على بن أبى طالب استخدمهم لحراسة أموال البصرة فى موقعة الجمل، وشاركوا فى حماية ثغور الشام بعد ذلك زمن الأمويين ثم وطنهم الحجاج فى سهول العراق بهدف استصلاح بطائحتها وزراعتها، واشتركوا بعد ذلك فى فتح البلاد وعلى حال فهذه الحملات لم تزد عن أن تكون مناوشات، لم تصل إلى مستوى الحرب بمعناها المعروف، ولعل هذا هو سر عودة هذه القوات إلى قواعد انطلاقها فى عمان بعد أن تمكنت من تحقيق مهمتها.

وبمجرد عودة قوات هذه الحملات، ورجوع المجاهدين، كتب الوالى إلى الخليفة يشرح له ما حدث وما تحقق من نتائج، فلم يبد الخليفة رضى الله عنه ارتياحا لهذه العمل، لأنه لا يتصور أن يقوم الوالى بكل ذلك دون إذن الخليفة وبغير تشاور مع السلطة المركزية فى المدينة المنورة، ذلك أن الدولة الإسلامية لم تكن كوت قوة بحرية منظمة تستطيع التعامل مع الدول ذات القدم الراسخة فى هذا المجال، ثم إن القوات الإسلامية كانت مشغولة بالقتال على جبهتى الفرس والروم فى ذلك الوقت ولم يكن من المصلحة فتح جبهة جديدة دون اتخاذ الأهمية والعدة لذلك،- خاصة إذا كانت الجبهة واسعة وبعيدة عن الجزيرة العربية مثل بلاد السند والهند، إن هذا يمثل نوعا من المغامرة وتعريض الجند الإسلامى للخطر بصورة لا يرضى عنها أمير المؤمنين ولعل هذا هو السر وراء توعده للوالى نفسه عندما أبلغه أبناء هذه الحملات، لقد قال له غاضبا "يا أخا ثقيف حملت دودا على عود، وغنى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم" وبرغم ذلك فإن احتكار السفن العربية بقيادة المغيرة مع البحرية الهندية قبالة "الديبل" كان له أثره فى ظهور ثم فى نمو البحرية الإسلامية، إن انتصار المسلمين هنا أشبه بنصرهم فى حوض البحر المتوسط، بموقعة ذات الصوارى وما تم فى عهد عمر كان غارات خاطفة تمهد لتطور كبير.

وكان لابد من مرور سنتين أذن الخليفة بعدهما بتجهيز قوات برية لا بحرية لفتح إقليم مكران غرب بلوچستان ببلاد السند، وإقليم كرمان الفارسى الذى يقع

على حدود فارس مع بلاد السند، وكانت السند وتتبعها مكران إمارة مستقلة يحكمها ملك بوذى اسمه "هراش" وقد جعل الخليفة قيادة الجيش الأول للحكم بن عمرو التغلبي، وقيادة الجيش الثانى لسهيل بن عدى، وقد أخذت هذه القوات تواصل استعدادها ويزودها الخليفة بما تحتاج إليه من جند وقادة بحيث أيتح لها أن تبدأ مهمتها فى سنة ٢٢هـ، ٦٤٢م، وقد نجحت فى الوصول إلى كرمان ببلاد العجم وتم فتحها.

وفى سنة ٢٣هـ = ٦٤٣م وقد نجحت فى الوصول إلى كرمان وصلت طلائع جيش الحكم بن عمرو التغلبي إلى إقليم مكران وزوده الخليفة رضى الله عنه بثلاثة قواد آخرين وبعد فتح مكران توغل الجميع فى بلاد السند إلى أن اقتربوا من نهر السند.

أما أهل مكران فقد عسكروا على شاطئ نهر السند حيث أمدهم ملك البلاد بقوات هائلة جعل قيادة عليها لحاكم من أبرز حكام الولايات عنده اسمه "راسل" وقد عبر هذا بقواته النهر والتقى مع جند المسلمين فى معركة حامية كانت نتیجتها انتصار المسلمين، وقد قتل القائد السندى ومعظم قواده وتقهقرت قواته وتبعهم المسلمين حتى نهر السند أو نهر "مهران" فى إقليم السند وتولى أمر البلاد بعد هذه الهزيمة وزير الملك البرهمى، واستمر يحكمها مدة أربعين سنة، ولما هلم تولى شئون الحكم ابنه "داهر" أخر أمراء السند الذى هزمه المسلمون وتم لهم فتح بلاده بعد ذلك.

أما فى هذه المرحلة فقد صدر أمر الخليفة بأن تعود الجيوش الإسلامية إلى مكران فقد كان رضى الله عنه يخشى أن يستدرجوههم ويتوغلوا فى عمق بلاد لا يعرفونها حق المعرفة، لما يمثله ذلك من خطورة على المسلمين، فكان أمره صريحا بآلا يعبر أحد إلى الضفة الشرقية من نهر السند، وقال لقائديه: الحكم وسهيل "لا يجوزن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على ما دون النهر، وأمر ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفادها الله عليه. فعادت الجيوش لتستقر

فى مكران واستمر الحال هكذا فلم يحاول المسلمون التقدم أو فتح مناطق جديدة حتى نهاية عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وفى عهد الخليفة الثالث عثمان رضوان الله عليه ، يبدو أن قادة المسلمين ألقوا عليه وطالبوه بأن يأذن بالتوغل بالحد الإسلامى وتعريضه لمخاطر فى مناطق واسعة وبعيدة لم تكتمل للمسلمين معرفة طبيعتها بعد ، وقد رغب أن يحتاط للأمر ، فكتب لواليه على بلاد العراق عبد الله بن عامر وكانت بلاد فارس تتبعه ، أن يواجه إلى إقليم السند من يراه ويصفه للخليفة بعد معاينة ومباشرة " بحيث يعلم علمه وينصرف إليه بخبره فعهد الوالى بهذه المهمة إلى " حكيم بن جبلة العبدى " الذى ذهب إلى هذه البلاد ودرس أحوالها وجمع معلومات عنها ، ورجع إلى والى العراق الذى أوفده إلى الخليفة فلخص له ما انتهى إليه بهذا الصدد فى الكلمات الآتية أثناء حوار مع عثمان بن عفان رضى الله عنه .

يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتنحرتها قال الخليفة : صفها لى : قل ماؤها وشل وثمرها دخل ولصها بطل ، إن قل الجيش فيها ضاعوا . وإن كثروا جاعوا ، فقال له الخليفة : أحابر أنت أم ساجع ؟

قال بل حابر ، فاكتفى الخليفة - رضى الله عنه بالبقاء فى إقليم مكران ورفض عبور النهر والانطلاق إلى داخل البلاد .

وعندما تولى عبد الله عامر بن كرير القشيرى ولاية العراق سنة ٢٩هـ عين عبد الله بن معمر التيمى حاكما على مكران ، فأثنى حتى بلغ نهر السند وظل يحكم إقليم مكران إلى أن استشهد الخليفة عثمان رضى الله عنه .

وفى خلافة الإمام على كرم الله وجهه وبرغم الفتن والمشاكل الداخلية ، توجه الحارث بن مرة العبدى سنة ٣٩هـ = ٦٥٨ - ٦٥٩م على رأس ألف من خيرة المسلمين ومجموعة من القادة إلى مكران حيث انضمت إليه قوات أخرى من أهل البلاد ، وسار الجميع إلى القيقان " الكيكان " - وهى جزء من بلاد السند يتصل

بالخراسان، ويسمى الآن "قلات"، وهناك قابله قوات غفيرة لأعدائهم بلغت عدتها عشرين ألفاً، ودخلوا معها فى معركة دامية، وتمكنوا من تحقيق نصر مشرف عليها واسروا الكثيرين من أفرادها.

ولكن الإمام على استشهد للأسف فى هذه الظروف - وتلقى المسلمون خبر استشهاده فتأثرت معنوياتهم واضطروا للعمل على العودة مرة أخرى إلى مكران وقد شجع ذلك الأعداء فتجمعوا بأعداد غفيرة من جديد، وكان على الحارث بن مرة أن يلقاها مرة أخرى فى نفس القيقان سنة ٤٢هـ = ٦٦٢م - أوائل زمن معاوية رضى الله عنه وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً وثبتوا فى أماكنهم، ولم يهنوا أو يضعفوا وواجهوا الجموع الكثيرة فى بسالة منقطعة النظير حتى استشهد القائد نفسه ومعظم القادة والجند، ومن بقى منهم اضطروا للعودة إلى ثغر السند - مكران ذلك الإقليم الذى بقى وحده بأيدي القوات الإسلامية، يتبع إقليم العراق، أحد أقاليم الدولة الإسلامية، وكان الولاة يفدون منه إلى إقليم مكران السندى.

ب- زمن الدولة الأموية

استمر الاحتكاك العسكرى والمناوشات بين المسلمين وأهل مكران أيام معاوية - رضى الله عنه " الذى كانت بلاد الهند ترتعش فى أيامه، فقد أتى الملهب بن أبى صفرة إلى ذلك الإقليم سنة ٤٤هـ، نائبا عن عبد الله بن عام والى العراق، فوصل إلى "بنه" و"الأهواز" وبه الآن هى بنوكوهات بباكستان - وهما بين الملتان وكابل - فلقى العدو وقاتله هو ومن معه، كما لقى المهلب ثمانية عشر فارسا من الترك ببلاد القيقان الحصينة، فقاتلوه وقتلوا جميعا.

وفى زمن معاوية أيضا جاء عبد الله بن سوار همام العبدى على رأس أربعة آلاف مقاتل، فغزا القيقان - وأهلها من الترك - ثم وفد إلى معاوية وأهدى إليه خيلا قيقانية، ثم رجع إلى نفس المكان فقتله الترك وفى ذلك يقول الشاعر:

وابن سوار على عداتيه موقد النار وقتال السغب

أما زياد بن أبى سفيان فقد ولى سنان بن سلمة بن المحبق الهذلى على ذلك الإقليم ففتح ما بين مكران والقيقان عنوة، ثم سار إلى منطقة البوذية المجاورة وأقام هناك وضبط البلاد ولكنه استشهد بعد حكم استمر سنتين وتوالى الولاة لا يتجاوزون القيقان والبوقان وقصدار، وهى من المدن الداخلية فى إقليم مكران، وعندما بويع عبد الملك بن مروان خليفة على المسلمين سنة ٦٥هـ = ٦٨٤م كان حال هذا الإقليم على ما كان عليه، فقد شغل الخليفة عنه بما واجهه من حروب وفتن داخلية، ومعنى ذلك أن المسلمين لم يتعدوا حدود مكران إلا زمن معاوية حيث استولوا على شرق إقليم بلوخرستان وقلات ثم تقدموا نحو قندهار وكابل ووقفوا عند ذلك الحد أى فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ.

ثم تولى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر العراق والولايات الشرقية سنة ٧٥هـ = ٦٩٤م فقام بدوره سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى على ثغرى مكران

والبوقان، وقد أمكنه تنظيم البلاد إداريا وماليا واستطاع بمعاونة موظفين أكفاء جدد أن يضبط الإقليم وأن يحصل منه أموالا كثيرة بفضل سياسته ودهائه، ولكن خرج عليه جماعة من العرب الوافدين على هذه البلاد زمن الفتنة والذين خضعوا لملكها المسمى "داهر" وكان يتزعم هؤلاء معاوية بن الحارث العلافى ومحمد بن الحارث العلافى، وقد غلبا على هذه البلاد، وقتلا أميرها واستقلا بها من سنة ٨٠ إلى سنة ٨٥هـ= ٦٩٩ - ٧٠٤م، وكان الحجاج قد أرسل واليا من قبله هو مجاعة بن سعر التميمى، ففتح ووصل إلى بعض نواحي "قنديل" وحمل العلافيين على الفرار إلى داخل البلاد وعادت مكران للسيادة الأموية، ولما مات ذلك الوالى بعد سنة، اختار الحجاج محمد بن هارون بن زراع النمري ليحل محله. وقد نجح ابن هارون فى تنظيم ديوان مكران وقضى على زعماء الفتنة فيه وتبع القتلة من العلافيين على مدار خمس سنوات وقضى عليهم أن يظهر العداء لملك السند.

وقد ساعد استتباب الأمن فى بلاد العراق وانتظام أمر الخلافة الأموية واستقرار الأوضاع بها والقضاء نهائيا على ما كان هناك من فتن، ساعد ذلك كله على توجيهات القوات الإسلامية للجهاد ونشر راية الإسلام فى مناطق جديدة من العالم. وخاصة وقد أكسبتهم الغزوات الثغرية دربة على القتال ومعرفة بأساليب العدو وفنونه وخبرة بالمحيط الهندى ومسالكه، ثم تحولت الغزوات الثغرية البحرية إلى هجوم بحرى سافر على يد أمير البحر الوالى محمد بن هارون.

فى ظل هذه الظروف كان الوليد بن عبد الملك قد تولى الخلافة وورث ملكا مستقرا عن أبيه وقد دفعه ذلك إلى التفكير فى استئناف حركة الفتوحات الإسلامية على كل الجهات.

أما بلاد السند فقد حدث فيها أمر ترتب عليه تغيير كامل فى السياسة التى كان "الحجاج" ومن سبقه يتبنونها إزاء إقليم مكران، هذا الأمر دفع الحجاج إلى التفكير فى إرسال قوات لفتح بلاد السند، لعل نور الإسلام يشرق عليها جميعا ونتخلص نهائيا من مضايقات الأعداء القابعين هناك.

إنما حادثة تتخلص فى أنه حوالى سنة ٩٠هـ=٧٠٨م أهذى ملك جريرة الياقوت (سرندىب - سيلان) للحجاج بعض الهدايا القيمة، وقد حملتها ثمانى عشرة سفينة عربية واتجهت نحو بلاد العراق، وقد صمت هذه السفن بعض النساء المسلمات اللائى عمل أبائهم بالتجارة وماتوا فى "سرندىب" وكان ملك هذه البلاد يبعى بذلك التودد إلى أمير العراق، وبينما كانت السفن قريبة من ميناء "الديبل" ببلاد السند، هجم عليها جماعة من القراصنة ممن يسمون بالتكامرة، واستولوا عليها بكل ما فيها ومن فيها من التجار والنساء المسلمات ومضوا بهم إلى داخل بلاد السند وعلم الحجاج بما جرى عن طريق تاجر تمكن من الهرب وأخبره.

وبرغم ضيق الحجاج من تصرفات القراصنة ومن حماية ملك السند لهم، ومن مساندة العلافين المتمردىن على حكومة بنى أمية إلا أنه آثر اللجوء إلى الطرق السلمية أولاً، وذلك أنه من الحكمة ألا يستخدم العنف فى مثل هذه الظروف، خاصة وأرواح المسلمين والمسلمات الذين لا حول لهم ولا قوة فى أيدي هؤلاء المجرمين، وقد يقومون بالقضاء عليهم فى لحظة غضب، ومن هنا وجدنا الحجاج يؤثر إرسال رسالة إلى ملك السند يطالبه فيها بالتدخل وإرسال السفن وإطلاق سراح الأسرى، ولكن "داهر" ملك البلاد اعتذر بأنه لا سلطان له على القراصنة اللصوص وليس فى استطاعته القبض عليهم أو عمل أى شىء يساعد على حل القضية.

والواقع أن هؤلاء كانوا من أعوان ملك السند، وكان يسبغ عليهم حمايته كما أثبتت الوقائع بعد ذلك، ومن هنا غضب الحجاج، فقد تأكد لديه سوء نية ذلك الملك، ورأى أن الواجب يفرض عليه استخدام القوة لإنقاذ الأسرى وتأديب القراصنة، ولم تكن أمامه حيلة أخرى بعد أن أغلق "داهر" سبل السلام أمامه، وفرض عليه اللجوء إلى القوة ما من ذلك بد.

وقد أعد الحجاج جيشاً بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمى، ووجهه بحراً إلى ميناء الديبل (كراتشى الحالية) عن طريق عمان، ولكن ذلك الجيش فشل فى تحقيق

مهمته، ذلك أن الملك " داهر " كان ينتظر قدومه مستعدا لمواجهة، وقد استشهد عبد الله نفسه فى المعركة مع الكثيرين من جنده.

لم تدفع نتيجة المعركة الحجاج لليأس ولم يستسلم، بل أعد جيشا جديدا سنة ٩١هـ = ٧٠٩م جعل القيادة عليه لبديل بن طهفة البجلي، وقد أتخذ ذلك الجيش طريق البر إلى عمان ومنها إلى إيران فمكران حيث أمده الوالى محمد ابن هارون بثلاثة آلاف من الجنود، أضيفوا إلى ثلاثة آلاف فارس كانوا معه، وقد أعد هلم " داهر " جمعا قوامه أربعة آلاف مزودين بالأسلحة، تعاونهم عشرات الفيلة وجعل عليها ابنه المسمى " جيسية " وعند " الديبل " دارت معركة عنيفة بين الجانبين استمرت طوال اليوم. وقد ربط القائد " بديل " خلالها عينى فرسه لأنها كانت تهاب الفيلة، وقاتل بشجاعة نادرة وصرع ثمانين من أعدائه ولكنه استشهد آخر الأمر وخسر جيشه المعركة ووقع بعضه فى الأسر وانضم إلى الموجودين فى سجن الديبل.

وصل الخبر للحجاج فاستشاط غضبا وآله للغاية أن يلقي خيرة جنده هذا المصير على أيدي هؤلاء المجوس، فأقسم ليفتح هذه البلاد وينشر الإسلام فى ربوعها، وقرر القيام بحملة منظمة، يعد هلا جيدا وتعمل على فتح بلاد السند وتنتقم من ذلك الملك العنيد، وكان على والى العراق والمناطق الشرقية أن يبعث للخليفة الوليد بن عبد الملك ينهى إلى ما حدث ويستأذنه فى إعداد الجيوش وإرسالها لتعمل ضد من يقفون فى سبيل تبليغ كلمة الله لكل السكان فى بلاد السند.

أما الخليفة فقد تردد أول الأمر، لأنه كان لا يزال يتهيب تلك البلاد، فهى مناطق واسعة بعيدة عن مقر الخلافة فى دمشق، فالمسافة بينها وبين العاصمة الأموية تصل إلى ٢٥٠٠ كيلو متر، كما أن طبيعتها صعبة وجغرافيتها غير واضحة لدى المسلمين، ففتحها والحالة هكذا قد يكلف المسلمين الكثير من النفقات والأرواح، ولكن الحجاج عاود الكرة موضحا ما عنده من خطط عسكرية محكمة

تضمن النصر بإذن الله، وتعهده أن يرد إلى خزينة الدولة ضعف ما ينفقه على فتح بلاد السند مما يدل على ثقة في الفتح وفي وفرة ما سيحصله من مغانم من ذلك الفتح، وقد وافق الخليفة الوليد آخر الأمر، فكانت حملة محمد بن القاسم الثقفي .

وعندما قام ابن القاسم هذا بحملته كان المسلمون قد نجحوا في فتح بعض المناطق بجنوب أفغانستان الحالية، ثم اتجهوا نحو كرمان ومكران - غرب إقليم بلوخستان الآن - وكذلك فتحوا سستان، ثم كانت حملة ابن القاسم الذي أتم الله على يديه نعمة إشراف الإسلام بكل مناطق السند ودخول أهلها في دين الله أفواجا، فلنحاول منذ الآن متابعة أحداثها .

محمد بن القاسم
يفتح بلاد السند والبنجاب
زمن الوليد بن عبد الملك

محمد بن القاسم الثقفى فاتح بلاد السند

أحداث الفتح

فى سنة ٩٢هـ = ٧١٠م اختار الحجاج صهره وابن أخيه عماد الدين محمد بن القاسم الثقفى - الذى كان واليا على الرى ببلاد فارس - وعينه قائدا على الجيش الإسلامى الذى تقرر توجيهه لفتح بلاد السند، وذلك لما تميز به من أخلاق عالية وشجاعة وفروسية نادرة وإقدام، رغم عمره الذى لم يكن تجاوز السبعة عشر ربيعا، وأيضا لأن تلك كانت رغبته، ذلك أنه قال للحجاج " إني لا أطلب منصبا ولا أطلبك برزق وإنما أطلب منك أن تعيننى على موته فى سبيل الله، فأعنى على الموت يهب لك الله الحياة " لقد سئم الحروب الأهلية وأراد توجيه همته لمجاهدة أعداء الإسلام ونشر ذلك الدين الحنيف.

وعلى كل حال لقد كان على ذلك الشاب أن يتجه نحو بلاد الهندى الغربية عليه، وأن يقاتل عدوا انتصر على قائدين مسلمين من قبل بسهولة، وقد كان ابن القاسم أهلا للثقة به لحكمته ورزاقته ومواجهته العدو دون خشية أو وجل، ولم يكن ما قاله المنجمون عن حسن طالع وحظه وراء اختيار الحجاج له كما يذكر بعض الباحثين.

وقد زوده الوالى بكل ما يحتاج إليه من أسلحة وذخائر وأموال ولم يخل عليه بأقل الأشياء حتى الخيوط والمسال كما عمد الحجاج إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الحاذق ثم خفف فى الظل وقال: " إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا الخل فى الماء واصطبغوا... " وجعل تحت أمره القائد عددا من خيرة الفرسان والمشاة بلغ ستة آلاف ما بين فارس وراجل وحرص على توديعهم بنفسه على رأس أفراد الشعب.

وقد وصل محمد بن القاسم إلى شيراز من الرى والتحق بالجيش هناك

ومكث بهذه المدينة ستة أشهر يرتب جنده ويدرب رجاله ويتعرف على البلاد وينظم جيشه ثم رسم خطة الفتح التي اعتمدت على إرسال بعض المجانيق والأسلحة على ظهر بعض السفن، وقد عين عليها اثنين من القادة وأمرهما أن يسبقاه إلى ميناء الديبل وأن ينتظراه هناك، وكانت السفن العربية فى عهد الوليد قد أصبحت تتخذ دور المبادأة بالهجوم، فالعرب قد استفادوا من حملاتهم السابقة ومن احتكاكاتهم ببحرية الهند، ولا يبعد أن يكون قد أعدوا سفنا يمكنها مواجهة أساطيل السند والسيطرة على المحيط الهندى أما ابن القاسم نفسه فقد سلك طريق البر مارا بإقليم مكران معه خمسة عشر ألفا من أهل الشام والعراق ومن الفرس والعرب، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف من الجمال يحمل على نصفها الزاد والمثونة والسلاح، ويتقارب أفراد الحملة ركوب ١٥٠٠ منها بحيث خصص جمل واحد لكل أربعة أفراد.

وقد وصلت القوات إلى إقليم مكران فى نفس عام ٩٢هـ = ٧١٠م وبقيت هناك أياما للراحة والاستعداد لدخول بلاد السند، وقد تم اجتياز الحدود من مكان اسمه الآن " داربيتجى " Darbiji دون أن يصادف المسلون أثرا لقوات " داهر " أما الحجاج فكان على اتصال دائم بالجيش وقائده لا تغيب عنه توجيهاته ونصحه.

وقد حرص ابن القاسم على أن يستقر الوضع ويستتب النظام فى البلاد الواقعة غربى نهر السند قبل أن يعمل على الوصول إلى الضفة الشرقية لذلك النهر حيث تقع عاصمة " داهر " ملك السند.

وقد تحرك الجيش المسلم ونجح فى فتح بعض البلاد مثل " فنزبور " و " أرمابيل " قبل أن يصل إلى " الديبل " كثيرا من رجال الميد والجات (الزلط) وهى من القبائل السندية التى تركت مواطنها الأصلية بسبب سوء معاملة البراهمة لهم، إذ كانوا يعتبرونهم من المنبوذين ويحرمون عليهم امتطاء الدواب ولبس الملابس الغالية، ولم يكن يسمح لهم إلا بالعمل فى المهن الحقيرة، وقد أفاد المسلمون من شجاعة هؤلاء ومعرفتهم بمسالك السند وأحوال أهلها.

بعد ذلك تم تقسيم أفراد الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب، وبقي القائد فى القلب ومعه كبار العسكريين، وحاصر مدينة "الديبل" لمنع الزاد والممدد عن سكانها، وحفرت الخنادق وركزت الرماح حول حصن الديبل حيث يوجد أسرى المسلمين كما نظمت دوريات المراقبة والاستكشاف، وأحاط الجند الإسلامى بالحصن من كافة نواحيه، ووصلت رسائل من الحجاج تستحث الجند وتعمل على رفع معنوياتهم، وجهزت المنجنيقات، بينها منجنيق كبير عرف باسم "العروس" كان يحتاج إلى خمسمائة رجل لتشغيله، وقد أمر محمد بن القاسم قائد هذا المنجنيق واسمه "جعوبة المسلمى" فصوصب قذائفه نحو العلم المتدلى من أعلى قمة لمعبد بوذى كبير وكان ذلك عملا بنصيحة بعض البراهمة، فقد أخبره أحد هؤلاء أن أهل وسكان هذه المنطقة يعتقدون بأنه لن يتمكن أحد من فتح هذه البلاد مادام هذا العلم مرفوعا " فهناك يد (صنم) عظيم، عليه دقل دويل، وعلى الدقل راية حمراء، إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور ".

وقد استغل المسلمون هذا الإيمان بتلك العقيدة بهدف التأثير على نفسية سكان البلاد وتخطيط معنوياتهم، وهذا ما حدث بالفعل فقد أيقن أهل البلاد بالهزيمة ومالاً الرعب قلوبهم عندما رأوا علمهم يهوى أمام أنظارهم، عندئذ تمكن المسلمون من دخول المعبد وأخرجوا ٧٠٠ فتاة كن يعملن فى خدمة الأصنام، ثم بدأوا هجوما شاملا على كافة جوانب الحصن فى وقت واحد، ووضعوا السلالم ليتسلقوا عليها إلى داخل الحصن، ونجحوا فى فتح أبوابه وقتلوا من كان بداخله، إلا من ثبت حسن معاملته لأسرى المسلمين، ذلك أن من كان بالداخل كان مسلحا، ولأنهم كانوا مصريين على الحرب، ثم لأنهم هم الذين آذوا المسلمين والمسلمات أثناء أسرهم فى الحصن، أضف لهذا أن الحجاج أراد أن يكونوا عبرة لغيرهم، أما حاكم "الديبل" فقد أمكنه القفز من فوق الحصن وهرب ليلا ثم توجه نحو عاصمة "داهر" ملك السند.

بعد ذلك جاء رجل من البراهمة وأرشد محمد بن القاسم إلى موضع السجن الذى فيه أسرى المسلمين داخل الحصن فتوجه إليهم وأطلق سراحهم .

وهكذا برهن تطور الحوادث على وجود المسلمين فى السجن الرسمى لملك السند وبداخل الحصن ، مما يؤكد أنه كان وراء القبض عليهم وأنه هو الذى دبر للاستيلاء على سفنهم وممتلكاتهم ، وأنه كان يكذب عندما زعم من قبل عندما اتصل به الحجاج أنه لا صلة له بهذه العملية ، وأن ما جرى لهؤلاء إنما هو من فعل القراصنة والصوص دون أن يكون له دخل فيه .

ولما تم لابن القاسم فتح الديبل ، مكث بها فترة ونظم أمورها ووزع المغام على مستحقيها وأرسل بالخمسة إلى دار الخلافة ، ثم عين حاكما للمدينة وترك لها ما يلزمها من حماية عسكرية تمثلت فى أربعة آلاف جندي . وقد اختار لهم مكانا أسكنهم فيه وأسس لهم مسجدا جامعاً ، وهذا هو شأن المسلمين عندما ييسر الله لهم فتح بلد ما ، وقد انتهى ابن القاسم من ذلك كله فى رجب ٩٣هـ = ٧١١ م . وفى نفس العام أتاه كتاب الحجاج يقول : أنت أمير ما افتتحت .

أما " داهر " فقد أغضبته نتيجة القتال وأسل لابن القاسم رسالة تفيض تهديدا ووعيدا قال فيها : إن ما حدث فى " الديبل " ليس نجاحا كبيرا ، فهذه المدينة لا يقطنها رجال مستقرون ، ومن فيها ليسوا إلا تجارا لا يعرفون شيئا عن أصول وفن الحرب ، ولا يجدى انتصارك على هؤلاء لقد سبقك جيشان إلى بلادى السند وقتل القائد فى كل منهما ، وإذا لم تنسحب من بلادنا فستلقى نفس المصير ، فلا تعتز بما رأيت فى " الديبل " فالشعب القوى يعمر أماكن أخرى فى السند ، إننا أمة شجاعة ورجالنا يحاربون إلى آخر رمق ولا يستسلمون أبدا ، وقد رد عليه ابن القاسم برسالة جاء فيها :

" إنك تفخر علينا بخيلك وفرسانك وجندك وما عندك من أسلحة ومعدات ، ولكننا نثق فى الله وفى دفاعه عنا وهو - سبحانه - قد ضمن لنا النصر والكرامة لقد ساعدت الإيرانيين ضدنا وكنت سبب ثورات قامت تعادينا فى بلوخستان

ومكران بل أرسلت جنك هناك، فعلت ذلك دون أن نسيء إليك بشيء ثم استولى اتباعك على سفننا وأسروا أطفالنا ونسائنا وقد وجدناهم فى سجنك، مما يعنى أنك وراء القراصنة والصوص، فلماذا ذلك كله؟ وقد عرف خليفة المسلمين كل ذلك وأمر بمعاقتك وسنقاتلك حتى تفنى أرواحنا".

ولم يؤثر هذا التهديد على محمد بن القاسم، ومضى القائد الشاب يحمل الدعوة الإسلامية ويعمل على تبليغها للناس ونشرها وأمكنة فتح العديد من المدن والانتصار على المحاربين المعاندين.

فتوجه نحو مدينة النيرون - قرب حيدر آباد السند الحالية على مسافة ٧٥٠ ميلا من مكران وتسمى أيضا " نيرانكوت " - ونزل فى ضاحية من ضواحيها فى جمع من قاداته ورجاله، وكان الوالى البوذى على تلك المدينة غائبا، وما لبث أن عاد وبعث برسالة خاصة لابن القاسم تتضمن اتفاقا سريا جرى بينه وبين الحجاج منذ عام يتضمن رضاه بحكم المسلمين، وقد فتح أبواب المدينة أمام القائد المسلم وجاء إليه يحمل هداياه فخلع عليه ابن القاسم وأكرمه، وبذلك سلمت هذه البلدة دون إراقة نقطة دم واحدة.

وبعد استسلام النيرون كتب الحجاج لابن القاسم يقول:

" لقد استسلمت النيرون عليك أن تعامل أهلها بالشفقة وأن تستولى على قلوبهم، وإذا استسلم من رفع السلاح عليك فلا تؤذه ولتعفو ولتصفح ولتحفظ عهدك حتى يثق فيك الناس، وإذا رجعت مرة فى عهدك فإن ذلك يفقدك تقدير الناس ولن يأمنوا لك" وأوصاه فى مناسبة أخرى فقال:

" إذا أردت أن تحفظ بالبلاد فكن رحيفا بالناس ولتكن سخيا فى معاملة من أحسنوا إليك، وحاول أن تفهم عدوك، وكن شفوفا مع من يعارضك، وأفضل ما أوصيك به أن يعرف الناس شجاعتك وانك لا تخاف الحرب والقتال " .

وعجيب أن تصدر هذه الوصايا من الحجاج الذى أشتهر بالشدة والقسوة والعنف فى تعامله مع خصومه.

ومهما يكن من أمر فقد توجه ابن القاسم بعد فتح (النيرون) ناحية سيوستان (سيهوان وسييى الآن) على بعد ١٣٠ كيلو مترا إلى الجنوب الغربى - ونزل المسلمون فى موضع يقال له "موج" أو "ماوج"، وكان حاكم تلك المنطقة برهميا، فاجتمع به رعاياه من البوذيين وأخبروه أنهم مسلمون لا يرغبون فى سفك الدماء وأنهم يشقون فى مسالة المسلمين لمن سالمهم، ولكن الحاكم رفض وجهة نظرهم، فاضطر الجيش المسلم لمحاصرة المدينة ورميها بالمنجنقات، وضيق عليها الخناق مدة أسبوع كامل حتى يئس حمايتها وتوقفوا عن القتال، وفر حاكمها تحت جنح الظلام إلى منطقة "البوذية"، عندئذ دخلها محمد بن القاسم واستولى عليها وغنم منها، وأمن البوذيين، لأنهم قبلوا الدخول فى طاعته سلفا ولم يستول على ممتلكاتهم كما فعل مع البراهمة.

ومن إقليم "سيوستان" هذا أهل "جنة" وهم جماعة كبيرة من البوذيين أسلموا جميعا زمن فتح السند على يدى محمد بن القاسم.

بعد ذلك توجه محمد بن القاسم نحو منطقة "البوذية" (البدهة) ونزل على شاطئ نهر يعرف بنهر كنبىء فى نفس المنطقة، وقد قرر حاكم الإقليم - بعد تشاور مع رجاله وقواده - القيام بغارة ليلية على معسكر المسلمين، ولكن الجيش ضل طريقه فى الصحراء، واد يخبر حاكمه، فتوجه ذلك الحاكم نحو محمد بن القاسم وأعلن استسلامه، وعاونه بنفسه فى القضاء على المتمردين حيث دخل المسلمون العاصمة الإقليمية "سيسم" وقضوا على فلول المعاندين.

وكالعادة اهتم محمد بن القاسم بتنظيم الأمور فى منطقة البوذية وعين خراجها، وساعد المسلمين على الاستيطان فيها وبنى بعض المساجد، وعين عليها حاكما ونصحهم بالاهتمام بالبلاد والحرص على راحة الشعب ورخائه.

من هذا العرض يبدو أن المحاربين - حتى الآن - كانوا من الهنادكة أو الهندوس أما طبقة التجار والحرفيين وغيرهم من السالمين فكانوا بوذيين " وهناك من الشواهد ما يدل على مساندة البوذيين للمسلمين، فراهب منهم هو الذى قدم

لابن القاسم وأخبره بضرورة إسقاط العلم من أعلى المبد لتسقط "الدليل" وواحد آخر منهم كان واسطة بين القائد المسلم وبين الأسرى من المسلمين، ومدينة "النيرون" كانت تحت حكم حاكم بوذى له مراسلات مع المسلمين قبل أن تطأ قدم محمد بن القاسم أرض السند وقد توقف القتال لمجرد وصول الحاكم وعودته من سفره وأعتذر للمسلمين وسلمهم المدينة. كذلك نصح البوذيون حاكم "سيوستان" بعدم محاربة المسلمين الذى لا يخالفون وعدهم، وعندما رفض، أعلنوا بصراحة أنهم لن يقتلوا معه، ونفس الشيء حدث فى "كاكا" و"كوتاك" حيث لم يكتف الحاكم بعدم حرب المسلمين بل ذهب إلى معسكرهم وقدم لهم معلومات مفيدة، وسنعرف أيضا فيما بعد أن قادة البوذيين هم الذين أمدوا ابن القاسم بسفن يعبر بها إلى الضفة الشرقية لنهر السند، وهكذا تدل الشواهد على معاونة البوذيين للمسلمين ومساعدتهم لهم على فتح السند، بل أن المسلمين منحوهم ثقة لم يحظ بها بعض مواطنيهم، وهذا يسر مهمة الفاتحين.

وفى هذه الآونة تلقى ابن القاسم رسالة من الحجاج تشجعه وتشد أزره وتعطيه توجيهها ببذل وعوده للزعماء فى مختلف الولايات حتى ينال مساعدتهم، وأوضح له وسائل التوصل إلى السلطة وتلخص فى أربع هى: الإدارة وبذل المال والرأى الصائب فى محاربة الأعداء بعد دراسة أمزجتهم ومعرفة نواحي قصورهم ثم إدخال الرعب والهيبة مع القوة والشهامة، ثم طلب منه أن يعبر نهر السند إلى ضفته الشرقية كي يدخل الفزع إلى قلب العدو، أخيرا أوضح له الحجاج أسلوب معاملة الرعية وفقا للخيار الذى تميل إليه من اعتناق للإسلام أو قبول الطاعة للمسلمين ودفع الجزية أو التصميم على الحرب والقتال.

وقد اضطر ابن القاسم أن يعود إلى مدينة "اشبهار" - بالقرب من مدينة "نيرون" بناء على أوامر الحجاج - وتمكن من الإجهاز على الحركة مناوئة قام بها بعض البوذيين وبعض رجال القبائل هناك، ثم عاد يتقدم نحو نهر السند وقضى فى طريقه على كل مقاومة وظل يواصل مسيرته حتى وصل إلى الضفة الغربية لنهر

السند، فى موضع مقابل لجيور (جيور) ولمدينة " راور " اللتين تقعان على الضفة الشرقية لنفس النهر .

وقد أرسل حاكم منطقة " بت " البوذى، رسالة إلى القائد المسلم يعلن فيها ولاءه واستعداده للتعاون مع المسلمين، على أن يتم ذلك بطريقة ترفع عنه الحرج أما الملك " داهر " الذى تربطه به صلة قرابة، وقد تم بالفعل ترتيب طريقة سلم بها نفسه وجنده لابن القاسم، وقد أكرمه الأخير ورحب به وجعله حاكما على منطقة " بت " كما أهدى لمعاونه من التكاكرة ثم طلب منه تجهيز السفن والمراكب اللازمة لعبور الجيش الإسلامى إلى الضفة الشرقية لنهر السند .

وهكذا بدأ الناس يتعرفون على الإسلام ويدخلون فى دين الله أفواجا، ونجح ابن القاسم فى مسيرته المظفرة حتى أضحى على شاطئ نهر السند الذى تقع عاصمة " داهر " على ضفته الشرقية .

فى هذه المرحلة بعث ابن القاسم رسولا إلى ملك السند كما فعل السابقون ممن فتحوا مناطق أخرى من العالم، وقد عرض الرسول على " داهر " الإسلام أو تسليم البلاد صلحا والرضى بحكم المسلمين، فإن أبى فليس أمام المسلمين إلا قتاله حتى يحكم الله بينهم وبينه، وهو خير الحاكمين، وقد طلب الرسول من ملك السند - فى حالة إصراره على الاختيار الأخير - أن يختار عبور النهر إلى حيث يوجد المسلمون على الضفة الغربية لنهر السند، أو يسمح لهم بالعبور إلى الضفة الشرقية، ليتيسر التقاء الفريقين فى ساحة القتال .

وقد عرض الملك الأمر على مستشاريه، فنصحه وزيره بأن يترك المسلمين يعبرون إليه فى ناحيته الشرقية، بذلك يكون النهر من خلفهم، وجند السند أمامهم، وتنقطع عنهم المؤن والإمدادات العسكرية فيسهل القضاء عليهم .

ولكن محمد العلا فى - أحد المتمردين على الدولة الأموية والذى يحظى بتأييد وحماية ومعاودة " داهر " - رفض فكرة الوزير ورأى العكس يعنى أن

المصلحة أن يجتاز جند البراهمة النهر إلى حيث يوجد المسلمون على الضفة الغربية، وحجته أن المسلمين يجاهدون فى سبيل الله، ويبحثون عن الشهادة طلباً للجنة ولن يرضيهم إلا الموت لرفع كلمة الله أو تحقيق الانتصار، فهم صابرون فى القتال يستميتون فى جهادهم بروح عالية، خاصة إذا رأوا أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من العاصمة السندية، وأضاف " العلافى " فى نصيحته للملك أنه ينبغى إرسال القراصنة واللصوص ليقوموا بالاستيلاء على المؤن والمواشى والعلف والقوت من خلف الجيش الإسلامى، وبذلك يتعرض للجوع وتفتك به الأمراض ويتيسر القضاء عليه.

وقد احتار الملك ولم يعرف أى الرايين يختار، وأخيراً قرر ترك الأمر لمحمد ابن القاسم وفوض إليه اختيار ما يشاء، فقرر القائد المسلم العبور إلى الضفة الشرقية، وبدأ يتصل بالمسلمين الجدد من أهل البلاد، ويطلب منهم التوجيه والنصح وإرشاده إلى أنسب مكان يتيسر عليه اجتياز النهر منه، وفى نفس الوقت طلب الحجاج إمداده بخريطة مفصلة للمنطقة بهدف دراستها وإبداء رأى، ثم استقر الجميع بعد المشاورات على اختيار نقطة بعينها للعبور منها.

أما " داهر " فقد بنى خطته العسكرية على أساس الاحتفاظ بالقسم الأكبر من جيشه عند مدينة " راور " بالشاطئ الشرقى، وأن تبقى السفن بالناحية الشرقية أيضاً فى مقابل " بت " على الضفة الغربية حتى لا يتمكن المسلمون من العبور من هذه المنطقة السهلة وحتى يجبروا على اجتياز النهر من مكان صعب، ثم أمر أحد وزرائه أن يكون جيشاً وأن يقف على أهبة الاستعداد للهجوم على المسلمين فور وصولهم إلى الضفة الشرقية، وكان فى الإمكان جمع ٥٠ ألف فارس وعدد ضخم من الفيلة ونقل أمتعة ورجال ومعدات ضخمة من " برهمان أباد " إلى " روار " .

وبرغم كل الدراسات التى أسهمت فيها كل الأطراف، فإن اجتياز نهر السند إلى ناحيته الشرقية لم يكن أمراً سهلاً، فقد واجه الجيش المسلم صعوبات عديدة ولكنه تمكن من تجاوزها.

فقد اضطر محمد بن القاسم أن يرجع مرة أخرى إلى " سيوسان " للقضاء على حركة تمرد معاوية، لأنه لم يكن يرغب في اجتياز النهر وهو مشغول بأمر من خلفه، فلا بد من التأكد من فتح الطريق ووصول الإمدادات والمؤن اللازمة لأفراد الجيش، وقد تحرك القائد المسلم إلى منطقة " جهم " وتعطل بها قرابة شهرين بسبب هذه الاضطرابات وبسبب مرض أصاب الخيل، وبسبب عجز في المواد الغذائية والمواشى والعلف. كذلك لم تكن حالة المناخ والرياح مناسبة، الشيء الذى أثر على الحالة الصحية والمعنوية للجنود.

وقد انتهز " داهر " سوء الأحوال وأرسل يهدد " ابن القاسم " ويعرض عليه المساعدة الغذائية على أن ينسحب إلى الخلف، ولكن ابن القاسم أكد لعدوه أنه لن يترك أرض السند قبل إرسال رأس " داهر " للحجاج.

أما والى العراق فقد سمع بما آل إليه حال الجيش المسلم، فبادر بإرسال ألفين من الخيول العربية الأصيلة مع بعض المواد الغذائية والخل المجفف، كذلك بعث بمرسوم عين بمقتضاه محمد بن القاسم نائباً عن الحجاج في بلاد السند، وفوض إليه التصرف في شئونها، كما شجعه على عبور نهر السند إلى ضفته الشرقية مهما كانت التكاليف، ونصحه أن يكون عبوره من منطقة " بت " حيث يقل الماء ويقل عرض النهر، وأشار عليه ببناء كوبرى من القوارب تيسيراً لعملية العبور.

وبالفعل وصل محمد بن القاسم إلى " ساكرة " في منطقة جهم (جيم) وبدأ فى تجهيز المراكب اللازمة للعبور، وتزويد الجيش بالمواد الغذائية والأسلحة، وأرسل بالوحدات الاستطلاعية إلى جهات متعددة من النهر، كما بعث بفرق عسكرية إلى نواح مختلفة بهدف العمل على منع وصول الإمدادات إلى جند " داهر " مع إعاقة تحركاتها وقت عبور الجيش المسلم وحصرها فى بقاع معينة، والتعامل معها إذا لزم الأمر، كما أمر بتوفير المزيد من الغذاء والعلف للقوات وأصبح بهذا كله مستعداً لاجتياز نهر السند إلى ضفته الشرقية.

أما "داهر" فقد تجاهل تحركات القائد المسلم واشتغل بالصيد ولعب الشطرنج استهانة بالمسلمين واطمئننا لما أعد من خطط عسكرية.

وقد أمر محمد بن القاسم بأن يتقدم محمد بن مصعب الثقفي على رأس وحدة صغيرة لمراقبة الطريق، تتلوه فرقة من ألف فارس يقودها "بنان بن حنظلة" لحماية المقدمة، ثم سار هو نفسه على رأس القواد المسلمين وكبار التكاكرة والزط مع الجيش الرئيسي حتى وصلوا إلى شاطئ النهر، وهناك اختار موضوعا قليل العرض، ثم أحضرت المراكب المحملة بالرمال والحجارة والأواح الخشب، وأمر القائد بتسمير الألواح على المراكب في صورة جسر يمكن العبور عليه للجهة الأخرى. كما أمر الوحدات البحرية الانتحارية أن تتوجه بسفنها نحو الشاطئ الشرقي من مناطق متعددة لتحول بين قوات البحرية السندية وبين التقدم ولتحمي الجيش المسلم في وسط النهر أثناء العبور. أما بقية الجيش الإسلامي فقد تلقى أمرا بصف المراكب على طول الشاطئ الغربي وربط بعضها ببعض على امتداد النهر وأن يحمل الجنود عليها، أخيرا أمر محمد بن القاسم بفك رأس المركب الأول حتى يسير في النهر متجها نحو الضفة الشرقية، يتلوه الثاني، وهكذا.

وبذلك نجح المسلمون في بناء جسر من المراكب عبروا عليه في شجاعة وحذر وبدون خسارة كما يذكر "ماجمدار الهندي".

وقد اندفع المسلمون في إصرار واستبسال داخل مناطق الناحية الشرقية للنهر، وفاجأوا العدو بسهامهم ودخلوا معه في قتال مرير انتصروا فيه فاندesh جند "داهر" لما حدث وأخذوا يولون الأدبار ويهربون في عمية الظلام حتى وصلوا إلى ملكهم في مقر حكمه وأخبروه بما حدث، فانزعج وكاد يفقد وعيه، بينما تمكن جيش المسلمين من إلحاق هزيمة مريرة بوحدات عسكرية قادها "محمد العلاقي" المتمرد على سلطان الحكومة المركزية في دمشق، وأخرى قادها واحد من وزراء ملك السند، وواصل مسيرته نحو العاصمة، حيث استعد الملك "داهر" بأقصى ما يستطيع موقنا أنه يلقي المسلمين في معركة مصيرية نتيجتها الموت أو

البقاء، ولذلك بذل كل جهد وسعه، وحشد لها كل الإمكانيات، ووفر لها جميع ما يحتاج إليه، وخطط لها أعظم التخطيط وأعد أفضل الجند وأحسن السلاح، ثم رأى أنه من الضروري أن يتولى القيادة بنفسه، هذا ما يميله عليه الموقف شاء أم أبى، بعد هزيمة "العلافى" وهزيمة الأمير "جيسية" وعدم تمكنها من الصمود أمام المسلمين.

أما ابن القاسم فقد استعد بأقصى طاقته هو الآخر، واستسلم له بعض الأمراء وعاهدوه على الولاء، ثم توجه بكل قادته ورجاله إلى موضع يدعى "نارائى" بينما عسكر "داهر" فى مكان يقال له "قاجيجاق" وكانت هناك بحيرة تفصل بين الفريقين، وقد واصل ابن القاسم تقدمه قليلا نحو نهر "دهواة" فى منطقة "جييور" حيث تقع قرى كثيرة تيسير عليه عملية الهجوم على جيش "داهر" من الأمام ومن الخلف، وكان ذلك بناء على نصيحة أحد أمراء السند الذين أعلنوا ولاءهم للمسلمين، ولما علم "داهر" بموضع الجيش الإسلامى الجديد ترك قلعة "راور" وتقدم نحو "جييور" كذلك تقدم ابن القاسم واقترب الجمعان وأصبح الفاصل بينهما نصف فرسخ فقط.

وعلى امتداد سبعة أيام كانت تخرج فرقة مسلمة لمحاربة فرقة سنديّة فى الساحة الواسعة بين الجيشين، وكان القتال يستمر أحيانا طوال اليوم، والمحصلة النهائية كانت فى صالح المسلمين ومن هنا قرر ملك السند القيام بهجوم شامل ضد المسلمين وأن يتولى القيادة بنفسه، فأعد خمسة آلاف فارس من أبناء الأمراء ومائة فيل حربى وعشرة آلاف فارس مزودين بالأسلحة وعشرات الآلاف من أبناء القبائل، ثم اختار فيلا ضخما ركبه ولبس درعه وأخذ سلاحه وقوسه وصحب غلامين يمدانه بالسهم، وقرر دخول المعركة الفاصلة، فكان هذا أول لقاء شامل بين العرب وبين مقاتلة الهندوس الذين تمسوا على استخدام الفيلة والرمى بالنبال واستخدام النفط.

وفى التاسع من رمضان سنة ٩٣هـ= ٧١١م بدأ القتال الشامل بين الطائفتين

بعد أن نظم كل منهما قواته ووزع قياداته ورتب خططه وكان " العلو فى " يعمل مع ملك السند ويقاتل المسلمين وقد استمرت المعركة طول اليوم.

ومن الطبيعى فى معركة مصيرية كهذه أن يبذل الفريقان كل طاقتهما، ولهذا كانت نتيجة القتال فى هذا اليوم الأول سجالات، مرة يحمل المسلمون على العدو ويتقدمون، ومرة أخرى يستخدم العدو ويتقدمون، ومرة أخرى يستخدم العدو فيلته فترد المسلمون إلى الوراء، وجاءت معاناة المسلمين من الفيلة فى هذا اليوم الأول، وفى اليوم التالى لمس المسلمون نقاط ضعف عدوهم وأدركو من أين يأتونهم، فأعادوا تنظيم جنودهم، واستخدموا المنجنيقات والرماة، وعملوا للقضاء على الفيلة وتشتيت مجموعات العدو بالنيران، وألقى القائد فيهم كلمة ترفع من معنوياتهم وتحثهم على التزام المراكز وذكر الله دائما، وأن يحرصوا على أن تكون أعمالهم جهادا فى سبيل الله، فاستبسل المسلمون فى قتال العدو الذى كان قد غير خطته وتنظيماته، كما كانت تعاونه آلاف من قبائل الزط الشرقية وغيرهم حتى بلغت عدة من معه ١٢٠ ألفا، ومع ذلك نجح المسلمون فى دحر بعض فرقة فالتهب القتال وحمى وطيس المعركة، وتداخلت القوات، وانزعجت الفيلة وصمم المسلمون على نيل إحدى الحسينين إما النصر وإما الشهادة، والوصول إلى رضوان الله واللجنة.

وأثناء اشتعال المعركة تقدمت مجموعه من قادة السند نحو محمد بن القاسم وطلبوا الأمان، فمنحهم الأمان، وأعلنوا إسلامهم بين يديه، وعرضوا خطة عسكرية تنهى المعركة وتبرهن على ولائهم وصدق إيمانهم، وتقوم على هجوم مباغت على مؤخرة الجيش السندى، وبالفعل توالوا الهجوم من الخلف، بينما قام ابن القاسم بالهجوم من الأمام، وكان "داهر" يركب فيلا ضخما يقود بقية الفيلة، وقد أقسم واحد من قادة المسلمين اسمه "الشجاع الحبشى" ألا يذوق الطعام حتى يقتله، وربط عين فرصه وبر بقسمه فتقدم حتى تمكن من جرح فيل القائد الضخم الذى كانت تتحرك بحركته كل الفيلة، ولما هاج فيل القائد أخذت باقى الأفيال

تترنج وتصيح ، واختل توازن الجيش وازداد لهيب المعركة اشتعالا ، وملت الكفة فى أول الأمر لصالح جيش السند وأصيب الشجاع بسهم ، ولقى الله شهيدا ، وتأثر بن القاسم نفسه من هول المعركة وطلب شربة ماء ، وما لبث المسلمون أن ثبتوا من جديد بعد أن سمعوا نداءات القائد وصيحته على جنده بالثبات ، وعلا التكبير لله أكبر الله أكبر يملأ الأفاق فهاجت الفيلة وسالت الدماء هنا وهناك وتكسرت الرماح والسيوف من شدة الضربات ، وعادت الكفة تميل لصالح المسلمين ، واضطربت أحوال جيش السند ، ولم يصدق ملكهم ما تراه عينه ، حيث لم يبق معه إلا فارس من أبناء القواد والأمراء من بين خمسة آلاف كانوا معه ، وقد واصل المسلمون قتالهم بصورة مستميتة .

ولما آذنت شمس ذلك اليوم بالغروب أمر محمد بن القاسم قائد رمة النفط بأن يقذف هودج فيل داهر بسهام مزودة بمادة كيماوية مغموسة فى قطن ثم لفه حول رؤوس السهام ، وكانت هذه المادة تشتعل عند رمى السهام ، فاشتعلت النيران فى الهودج وشعر الفيل بعطش شديد من شدة الحرارة ، واضطر ملك السند أن يتجه به ناحية النهر ليسقيه ، وهناك طارده المسلمون وأمطروه بوابل من سهامهم واشتبكوا معه فى قتال شديد ، واضطر " داهر " أن ينزل من على فيله وأن يقاتل بضراوة إلى أن تمكن جندى مسلم اسمه " عمرو بن خالد الكلابى " من ضرب عنقه ، وقال فى ذلك شعرا :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد

انى فرجت الجمع غير مصرد حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلاً متعفر الخدين غير موسد

وفى رواية الكلبي أنه قاتل ملك السند هو " القاسم بن ثعلبة بن عبد الله بن حصن الكائى " .

وعلى كل حال فقد أخفى أصحابه جثمانه فى خليج " راود " وتوقف القتال بحلول الظلام .

وفى اليوم التالى نادى ابن القاسم معلما أصحابه بغياب " داهر " ومحذرا من حيلة أو من كمين قد يكون هناك، ولكن واحدا من البراهمة أعلم المسلمين بمقتل " داهر " وأرشدهم إلى المكان الذى توجد فيه جثته فقطعوا رأسه وبعثوا به لابن القاسم الذى صلى شكرا لله عز وجل .

وقد استولى المسلمون على كثير من المغانم والكنوز والأموال وعلى عدد من الأميرات وأرسل الجميع إلى دار الخلافة .

وبذلك أصبح الطريق ممهدا لفتح باقى البلاد .

وكان ولى عهد السند قد بقى متحصنا فى قلعة " راود " على رأس من بقى من الأمراء والقادة بعد سقوط العاصمة، ثم أخذ برأى نصحه بمغادرة القلعة إلى المدينة " برهمان أباد " فهى مدينة حصينة وأهلها من المؤيدين له، وبذلك لم يبقى فى قلعة " راود " إلا النساء وعدد من القادة والجند للدفاع عنها .

وفى رمضان سنة ٩٣هـ = ٧١١م توجه المسلمون لفتح القلعة وقذفوها بحجارة المنجنقات بعد أن رفض من فيها الاستسلام، كما رموها بالسهم والرمح والنيران ليلا ونهارا حتى تهدمت أبراجها واضطر بعض من فيها إلى حرق أنفسهم، ودخلها ابن القاسم ليجد فيها ستة آلاف مسلحين، فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام، أما النساء والشيوخ والأطفال فقد أصبحوا أسرى، كما استولى المسلمون على مغانم كثيرة .

بعد ذلك كتب ابن القاسم إلى الحجاج ينهى إليه مقتل " داهر " ويشرح تفاصيل ما دار من قتال، كما بعث إليه بوفد من القادة . ممن شهدوا المعركة وعانوا أحداثها، وكان مع هذا الوفد رسالة توضح دور كل واحد من القادة وتشرح بطولاته، وكان مع الوفد الأسرى والأموال تحميه مائتى فارس مسلح، وسار الجميع من مكان المعركة إلى دمشق، حيث قدم قاتل الملك " داهر " رأسه إلى الحجاج والى العراق والإمارات الشرقية .

وقد أثنى الحجاج على محمد بن القاسم وأشاد ببطولاته فى رسالة أرسلها إليه وطلب منه تكريم زعماء القبائل والقادة الذين أبلوا بلاءا حسنا فى القتال ولم يضمنهم رسالته التى سبق وبعث بها إليه .

ويذكر " البلاذرى " عن منصور بن حاتم اللغوى - الذى قام بالسند بعد فتحها - أنه شاهد مصورا - تمثالين - أحدهما للداهر والآخر لقاتله فى مدينة بروس (بهرج)، كما شاهد مصورا (تمثالا) للقائد بديل بن طهفة فى مدينة "قند" وأنه زار قبره فى مدينة " الدليل " حيث أستشهد .

ويرجع نجاح المسلمين فى فتح تلك البلاد الواسعة إلى إيمانهم واطمئنانهم إلى ما أعد للمجاهدين عند ربهم وإلى نوعية القوات وكفاءة القيادة العسكرية والتفوق فى فن التكنيك العسكرى، ثم إلى سياسة المصالحة التى تبناها محمد ابن القاسم إزاء كل استسلم، فكان الفتح الإسلامى حريصا على رغبات السكان المشروعة أكثر منه معارك عسكرية، لقد رحب رجال الدين البوذيين بالمسلمين فى " نيرون " وثار شعب " سيهوان " على حاكمه الهندى وسلم للقائد المسلم، وهكذا ساعدت كراهية الشعب لحكامه على نجاح المسلمين، فقطاع كبير من سكان السند والمثلتان كان بوذيا .

وفى سنة ٦٢٢م كان قد اغتصب العرش وزير رهمى اسمه شاش chach ولم تلق حركته استجابة لأى طائفة كبيرة من الشعب، خاصة وأن هذا الملك عامل قبائل الزط والميد معاملة سيئة، وحرّم عليهم حمل السلاح ولبس الحرير وركوب الخيل وفرض عليهم أن يمشوا حفاة وأن يرافقهم كلب، وجاء من بعده ابنه داهر ٤٩ - ٩٤ / ٦٦٩ - ٧١٢هـ الذى لم يصل للحكم إلا قبل الفتح الإسلامى بفترة وجيزة - واتبع نفس السياسة، فأصبحت سيطرته على السند - ومعظم سكانه من البوذيين - واهية، ولم يلق استجابة من جانب قطاعات كبيرة فى الشعب، بل إن كثيرا من الضباط والجنود تحولوا بسرعة إلى المسلمين أثناء حربهم ضد هذا الملك كما كان دعم وتأيد قبائل الزط والميد من أكبر أسباب انتصارات المسلمين، وقد

أخذ ابن القاسم فى تجنيدهم تحت قيادته واعتمد عليهم فى التخفيف من شعور العداء للمسلمين عند بعض الطوائف باعتبارهم عدواً أجنبياً، وبهم وصل إلى الانسجام الداخلى وحقق تقدماً لا يقدر فى بلد شاسع يقطعه العديد من الأنهار والقنوات والمستنقعات.

مواصلة الفتوحات؛

علم الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بتفصيلات معارك المسلمين فى بلاد السند ونجاحهم فى إزاحة عقبة كبرى كانت تقف حجراً عثرة تعوقهم عن أداء واجبهم فى تبليغ كلمة الله وتوصيلها لكل الشعوب، فسر الخليفة بما تحقّق من نتائج وخلع على ابن القاسم وعلى القادة وأمره أن يواصل فتوحاته فى باقى بلاد السند.

استجاب القائد لأمر الخليفة وأخذ يواصل فتوحاته فى بلاد السند فتسقط بين يديه المدن واحده تلو الأخرى فقد توجه إلى مدينة "بهرور" على بعد فرسخ من "برهمان آباد" وكان يتحصن بها - كما قدمنا - نحو ١٥ جندي، وقد قام المسلمون يقذف المدينة بالأحجار والنيران حتى تهدمت أسوارها وقتل عدد كبير ممن فيها واستولت عليها القوات الإسلامية وعلى ما كان بها من أموال وسلاح.

بعد ذلك توجه ابن القاسم نحو مدينة صغيرة بجوار بهرور تسمى "دهليّة"، وكان يتحصن بها حوالى ١٦ ألفاً من الجنود، فحاربها الجيش المسلم وضيق الخناق عليها حتى اضطر حاكمها ومعظم سكانها وتجارها إلى مغادرتها ليلاً فى اتجاه الهند فاستولى عليها المسلمون فى الصباح، وعين ابن القاسم عليها والياً جعله مشرفاً على موانئ سواحل تلك المنطقة من الضفة الشرقية لنهر السند.

بعد ذلك عمل القائد المسلم على فتح مدينة "برهمان آباد" لكنه قبل ذلك أراد أن يوجه نداء عاماً معذرة إلى ربه - عز وجل - على الناس يتقون، فبعث برسائل إلى كل الحكام والأمراء فى كافة مناطق السند دعاهم فيها إلى الإسلام أو

الطاعة للمسلمين، وعرض الأمان لمن رغب فيه، فحضر عنده الوزير " سيساكر " Sisakar وطلب تأمينه، فأكرمه ابن القاسم وأهدى إليه وولاه وزارته، واستفاد بكثير من أرائه وخبراته في مسائل الدولة وفي العمليات العسكرية، وكان الوزير من ناحيته مخلصا معجبا بالإسلام ومبادئه وقيمه الاجتماعية والأخلاقية، وقد تنبأ بأن كل السند والهند ستخضع له قريبا وستنعم كل البلاد بعدله وسماحته، وقد مات ذلك الوزير بعد سنتين من إسلامه .

أما ابن " داهر " " جيسية " Jaisiya فقد وصل إلى برهمان آباد، وتحصن بحصنها الكبير - وهى تبعد بفرسخ واحد فقط عن مدينة " دهليلة " - ومن موقع حصنه الجديد، كتب ذلك الابن إلى الأمراء والحكام يحثهم على معاونته وأن يستعدوا معه لمحاربة المسلمين، فتمكن من جمع ستة عشر من المحاربين وعشرات آلاف الجنود من مناطق السند المختلفة، وحصن المدينة تحصينا قويا وجعل على كل باب من أبوابها واحدا من كبار قادته .

أما ابن القاسم فسار إلى نفس المدينة ونزل على حافة نهر صغير بضواحيها اسمه نهر " حلوانى " ومن هناك أرسل لابن داهر يدعوه إلى قبول الإسلام أو الطاعة ودفع الجزية وإلا فالحرب، وقد مال الزعيم السندى إلى الخيار الأخير، عندئذ استعد محمد بن القاسم وحفر الخنادق ووزع الوحدات العسكرية، ثم بدأت المعركة، فكانت تخرج فرقة من أربعين ألف جندى تقاتل المسلمين من الصباح إلى المساء ثم يعود من سلم منها إلى الحصن بعد أن تتعرض للهزيمة، واستمر الحال هكذا مدة شهرين، ثم توقف القتال فى ٣٠ ذى الحجة سنة ٩٣هـ = ٧١٢ م .

ذلك أن حال الجيش المسلم كانت قد ساءت بسبب استمرار القتال وقلة المواد الغذائية، وقد عمل محمد بن القاسم بنصيحة بعض الأمراء فطلب قوات إضافية أخرى وكون جيشا من الفرسان جعل عليه الأمير " موكه بن بسايه " حاكم منطقة " بت " الذى دخل قبلا فى الإسلام، كما كون فرقا من المشاة فيها كثير من أفراد القبائل السندية وزحف بكل ذلك على مدينة " برهمان آباد " .

علم زعيم السند بوجهة واستعداد المسلمين، فسار نحو " جيور " بحيث يستطيع الهرب منها إلى حدود الهند، بينما تركه " محمد العلافى " وأتجه نحو بلاد كشمير خارج حدود السند .

عند ذلك طلب أعيان " برهمان آباد " وسكانها الأمان، فعقد لهم ابن القاسم عهدا والتزموا بالطاعة وفرض عليهم الجزية، ثم دخل المدينة ولم يقاتل إلا من رفض التسليم، وأسر نحو عشرين ألفا بينهم زوجة ثانية لداهر وابنتان، واستولى على مغانم وزعها وبعث بالخمس إلى بلاد العراق، وفى اليوم التالى جاءه ألف من البراهمة ممن اتخذوا مظاهر الحزن لهزيمتهم وقتل ملكهم البرهمى، فأمنهم ابن القاسم بناء على رغبتهم .

أكثر من هذا أصدر قائد المسلمين أمرا باحترام رجال الدين البراهمة، وعهد إليهم بعدد من مناصب ووظائف الإدارة وجمع الخراج من المنطقة وقراها، وعين حراسا على أبواب المدينة منهم وتعهد بمنحهم كافة التسهيلات اللازمة كي يعيشوا معيشة كريمة فى ظل قيم الإسلام ومبادئه، وسمح لهم بترميم بيوت العبادة وإقامة طقوسهم البرهامية، نصحهم بأن يتعاونوا مع المسلمين فى المسائل التجارية والإدارية، وعين كل من " تميم بن زيد القيسى " وحكم بن عوائد الكلبي لتنظيم المسائل التجارية والإدارية وديوان الخراج والجزية، وعين للمدينة حاكما عسكريا مؤقتا، ثم كتب يخبر الحجاج بفتح تلك المدينة الحصينة والخطوات التى اتخذت لتنظيم إدارتها والتى يمثل سقوطها نهاية المعارضة الجادة والعداء للإسلام .

وقد أجابه الحجاج بقوله: ابن أخى محمد بن القاسم، إن سلوكك العسكرى يستحق الثناء والإطراء، والآن لا ينبغى أن تمكث فترة أطول فى تلك المدينة، إن عمدة بلاد السند هى آلور Alor و Multen، وينبغى أن تتأكد لك السيادة على كل الهند والسند، وإذا رفض بعض الناس الخضوع للحكم الإسلامى فلتقتله، لعل الله العظيم يقضى لك بالنصر، فتخضع لك البلاد من الهند إلى تخوم الصين .

وهكذا نرى أنفسنا أمام مثال واضح على سماحة الإسلام، وتعاون حكام المسلمين مع غير المسلمين فى المجتمع المسلم والاستعانة بهم فى المسائل الإدارية والمالية والاستفادة بما عندهم من خبرات والسماح لهم بممارسة شعائر دينهم حتى لو كانوا مجوسا دون شعور بحساسية، " فقد أكرم القائد المسلم رؤساء الهنادكه من رجال الدين وأطلق للناس حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس " .

لقد كانت بلاد السند أول بلاد يتعامل فيها المسلمون مع أمة تعبد الأوثان بأكملها، لكن ابن القاسم كان سمحا منهم، ومنحهم نفس الحقوق التى يقدمها الإسلام لليهود والنصارى من حيث حرية العقيدة والعبادة ونظر إليهم باعتبارهم بشرا وفتح بذلك قلوب العباد .

يقول K.S. Lal أن أفراد الشعب توسلوا إلى " محمد بن القاسم " بعد فتح " برهمان آباد " أن تضمن لهم حرية العبادة ورفع الأمر للحجاج وجاءه الرد منه يقول:

" ما داموا قد استسلموا ووافقوا على دفع الجزية للخليفة، فإنه ليس لدينا ما نطالبهم به، ولقد تعهدنا بحمايتهم، ولا يمكننا بأى حال أن نستولى على حياتهم أو ممتلكاتهم، فلنسمح لهم بعبادة آلهتهم " .

وقد تبنى غير المسلمين من التجار والصناع والفلاحين ورجال الدين الذين لم يكونوا مستعدين للاستسلام فقط، بل وقدموا مساعداتهم للفتاح حيث منحوه كل المعلومات التى طلبها، مما جعل مهمته سهلة .

إن كثيرا من التسامح كان فى الحقيقة ردا على عدم المقاومة من جانب الشعب، وحيثما وجدت المقاومة فى بعض المناطق - فإن انتقام القاسم لم يكن يعرف الرحمة .

ولكن " اشوارى براساد " يزعم أن المسلمين لم يقوموا بذلك بسبب

احترامهم لعقائد الآخرين، بل لأنهم اقتنعوا انه من المستحيل القضاء على عقائد سكان البلاد المفتوحة، ويواصل نفس المؤلف تحامله فيزعم أن القاضى كان يحكم بين المسلمين وغيرهم من الهندوس بنفس القانون الذى يقضى به بين المسلمين بعضهم ضد البعض الآخر، وتعرض الهندوس لظلم كبير نتيجة لذلك، ويقول أن اللصوص من بعض العناصر كانت تتعرض لعقوبة شديدة حيث كان يصدر الحكم بحرق زوجة وأطفال السارق؟!!! وأن الحكام المسلمين فرضوا ضرائب عديدة على المحاصيل المختلفة، كما فرضوا الجزية على غير المسلمين وفرضت مظاهر التمييز العنصرى على بعض رجالات القبائل.

ولسنا ندرى من أين أتى المؤلف بذلك كله.

ومهما يكن من أمر فقد أراد محمد بن القاسم أن يخضع القبائل المختلفة التى تسكن إقليم " برهمان آباد " حتى يتأتى له التحرك نحو عاصمة السند فى أمان، وكان لابد له من معرفة طباعهم وأخلاقهم قبل أن يتجه نحوهم وقد أخبره الوزير سياكر والأمير موكه حاكم بت - وكان ضمن من أسلم من قبل - أن بعض أفراد قبيلة الزط ومثلها قبيلة السيابجة، وكلاهما مجهول الأصل وتعمل الأولى بالرعى كما يعمل أسراها كجند مرتزقة فى جيش الفرس. ويعرف أفرادها بالوحشية والقسوة وبالطباع الشريرة، ولديهم رغبة فى التمرد، وممارسة أعمال القرصنة واللصوصية ومهاجمة القوافل والمسافرين ونهب امتعتهم وسرقة أموالهم، وعلى هذا تعتمد حياتهم.

وهذا هو السبب فى أن ملوك الهند من البراهمة، وضعوا قيودا عليهم وأمروهم بلبس الملابس الخشنة، وأن يمشوا حفاة حاسرى الرؤوس، وكانو يلزمون بأن يصحبهم كلب حتى يتعرف الناس عليهم لم يكن يسمح لزعمائهم بركوب الخيل فى الغالب، وكانوا يسألون عن أية حوادث نهب أو سرقة تقع فى الطريق، وإذا ثبتت السرقة قضى على المتلبس وعلى أفراد أسرته بالحرق، وكان على قبيلة

الزط هذه ارشاد المسافرين فى الصحارى وبين مدن السند وجمع مايلزم المطابخ الملكية من أحطاب .

ولم يكن أمام "محمد بن القاسم" بد من معاملتهم بنفس الطريقة، لتستقر الأوضاع فى البلاد، ومع ذلك فقد أراد تهذيب أخلاقهم فعهد إليهم بالكثير من الخدمات، وتأثر بعضهم بسلوك المسلمين وقيم الدين فدخلوا فى الإسلام، فألحق ابن القاسم العديدين منهم فى الجيش الاسلامى وحتى لم يصبحوا مسلمين تهذب سلوكهم بسبب معاشرتهم للمسلمين ولم يبق على أصله من التوحش إلا من عاشوا منعزلين فى مواطنهم القبلية.

أما قبيلتنا السمه والسهنة Sammas and Sahnas فكانتا على العكس من بعض أفراد قبيلة الزط Jats، فقد استقبلت الأولى محمد بن القاسم بالطلب والمزامير والرقصات القبلية تعبيرا عن قبولهم حكم المسلمين وترحيبهم به، فحمد القائد المسلم موقفهم، وعين أحد ساسة العرب ودهاتهم وهو "خيريم بن عمرو المدنى" حاكما عليهم، فمنحهم عشرين دينارا ذهبية هدية لهم، ورضى أولئك حكم المسلمين وفعلت قبيلة سهنة نفس الشيء، فقد احتفى زعمائها بالمسلمين ورحبوا بهم، وقابلوهم مكشوفى الرؤوس حفاة الأقدام، فرضى ابن القاسم منهم بذلك وأمنهم وحدد الخراج على أراضيهم، فقد كانوا مشغولين بالزراعة، كما استعان بمُرشدين منهم ليدلوا المسلمين على الطرق فى المناطق الصحراوية من برهمان اباد إلى العاصمة "أرور" وقد أسلم كثير من أفراد هذه القبيلة وحسن إسلامهم.

بعد ذلك بقى محمد بن القاسم فترة فى برهمان آباد، ينظم أمورها ويعين على كل منطقة حاكم يناسبها من حيث الخبرة والمعرفة بأحوالها، وترك المسائل المالية بيد أربعة من كبار الاعيان وتجار البلاد الأصليين، وأجرى بعض التنقلات بين القواد ونوابهم فى مناطق السند لدواع اجتماعية وسياسية، وكذلك وزع أفراد

القبائل العربية وأسكنهم فى مناطق عدة ودخلت الآلاف المؤلفة دين الله عن رضى واختيار .

كل هذه الجهود علم بها الحجاج من خلال تقرير مفصل جاء من ابن القاسم، وقد أثنى الحجاج عليه، وأمره بالسير نحو مدينتى أرور تم الملتان، لأن كلا منهما تمثل قاعدة قوية للملوك السندويه وحصون عسكرية هامة وخزائن وكنوز مدفونة فوق ما لهما من أهميته استراتيجية .

وفى محرم سنة ٩٤هـ تحرك ابن القاسم وفتح مدينتين قريبتين من العاصمة فى الطريق إليها - هما منهل وهرارور، وكان فتحهما عن طريق الصلح، كما فتح مدينتين صغيرتين هما " بسمة " و " ساوندرى "، وفرضت الجزية على السكان من البوذيين بعد منحهم الأمان، واشترط عليهم ضيافة المسلمين عندما يمرون بمناطقهم، وقد دخل هؤلاء السكان فى الإسلام بعد ذلك، ونعموا بعدل وحماية الولاة المسلمين .

بعد هذا أتحه محمد بن القاسم نحو آلور (أرور) عاصمة بلاد السند . وعسكر على بعد ميل من قلعتها الحصينة، وأقام شهرا للراحة والاستعداد، وكان يحكم العاصمة أحد أبناء " داهر " الملك القاتل، وقد اهتم بتحسين المدينة بقوة ورغب فى المقاومة، وأوهم الناس بأن أباه قد اختفى وأنه سيرجع عما فرب بجند وسلاح كثير، وبالفعل بدأت الحرب واستمرت أياما، ولكن أبا القاسم قطن إلى حيلة وفى إرسال أرملة داهر التى كان قد أسرها من قبل وبنى بها، ومعها بعض الزعماء الآخرين، وقد أبانت عن هويتها، وبيئت لأعداء المسلمين أن زوجها قد قتل، وأن قاداته قد استسلموا، وأنه يحسن بهم الاستسلام كذلك، والأولى بهم أن يعيشوا مع المسلمين فى أمان .

وقد رفض الناس تصديق المرأة أول الأمر، ولكنهم تأكدوا من صدق روايتها بعد فترة، واطمأنوا إلى عدل وسماحة المسلمين، ولذلك قرروا تسليم المدينة بينما

تمكن حاكمهم أو ملكهم من الهرب فى جنح الظلام واتجه ناحية مدينة " جيور " قرب الحدود الهندية مثلما فعل أخوه وغيره من قبل ، وقد فتحت أبواب المدينة ودخلها المسلمون دون قتال .

وقد شاهد ابن القاسم " بيت الصمم " بالعاصمة ، وهو معبد بوذى كبير ، يضم تمثالا رخاميا مكلا بالياقوت والجواهر ، يقوم على خدمته كبار رجال الدين فلم يعرض له بأذى ولم يسمع سدنته كلمة نابية ، مع يقينه بأنه لا يزيد عن أن يكون صنما لا يضر ولا ينفع .

وكالعادة نظم ابن القاسم أمور المدينة وعين عليها حاكما عليها ، وبنى بها مسجدا جامعا ، وأسند أمور القضاء والخطابة فيها للشيخ موسى بن يعقوب الثقفى ، أحد كبار علماء الإسلام ، ووضع عليها الخراج ، وطلب من سكانها أن يتعاونوا جميعا على ما فيه خيرهم ورفاهيتهم ، وقد تأثر سكانها من البوذيين خاصة بما رأوه من حسن معاملة المسلمين فدخلوا دين الله .

بعد هذا توجه محمد بن القاسم نحو مدينة " باتية " القيمة على الشاطئ الجنوبي لنهر " بياس " وكانت تحت حكم بن عم للملك " داهر " أسمه ككسا Kaksa وكان قد اشترك معه فى معركته الأخيرة ، ثم عاد إلى مقر حكمه بعد هزيمة الملك ، ولما علم بمقدم بن القاسم أرسل له هدايا ورهائن عرض طاعته ، فقبل القائد المسلم عرضه ، وزاد فعينه مستشارا له ، وفوض إليه كل الأمور المالية ومنحه خاتم خزينة المنطقة ، وقدمه على غيرة من القادة ، وأما الرجل فقد أخلص النصيح لمحمد بن القاسم فاعتمد عليه الأخير كثيرا فى تنفيذ مشروعاته فيما بعد ، وأعتنق الرجل الإسلام وحمل لقب " المستشار المبارك " .

وكان على محمد بن القاسم أن يفتح مدينة اسكلنده (اسكندراه) قبل فتح الملتان ، وكانت مدينة حصينة للغاية ومهيأة للقتال ، وبالفعل خرج أهلها لحرب المسلمين واشتدت المعركة بين الطرفين ، ثم اضطر أهل " اسكلنده " إلى الاعتصام داخل قلعته ، فحذفهم المسلمون بنيران المنجنيقات ورموهم بالسهام النارية واستمر

الحال هكذا لمدة أيام سبعة اضطر بعدها حاكم المدينة للهرب واحتوى فى حصن اسمه " حصن سكه " على الشاطئ الجنوبي لنهر " راوى " بالقرب من الملتان، وأتيح لابن القاسم أن يدخل المدينة، وأن تدور معركة بينه وبين جنود السند قتل فيها الكثيرون، ووقع عدد كبير فى أسر المسلمين، واستشهد من المسلمين ٢٥ كما استشهد من جنودهم مائتان وخمسون، ثم منح ابن القاسم أمانا للتجار والصناع والزراع وعامة الناس وولى حاكما على المدينة. استشهد فيه عشرون من قادة المسلمين، ومائتان وخمسة عشر فارسا من أهل الشام الشيء الذى آلم ابن القاسم وجعله يقسم ليهدم القلعة على من فيها، وقد هرب زعيمها السندى، وعبر نهر " راوى " نحو الضفة الشمالية وانضم إلى حاكم الملتان، فتقدم ابن القاسم نحو القلعة واستولى عليها وعلى سكانها من الجنود وأمر بهدمها، وقتل المقاتلين بها، وجدير بالذكر أن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى حدث فيها هذا الأمر أو أتخذ فيها ذلك الإجراء.

فتح الملتان:

الآن أصبح الطريق ممهدا أمام القوات الإسلامية لفتح مدينة الملتان ونواحيها فى إقليم البنجاب الذى كان يكون جزءا من مملكة " داهر ". زحف جيش المسلمين فى أعداد غفيرة وصلت إلى خمسين ألفا من الجنود والفرسان عشرهم فقط من الجيش الأسمى الفاتح، ومعظمهم ممن أنضم إلى المسلمين بعد نجاحهم فى المعارك السابقة، وقد اتجه الجميع نحو مدينة " الملتان " عاصمة البنجاب، وهناك حدث قتال بينهم وبين حاكمها ومن فر إليه من زعماء السند وأمراءهم راح الكثيرون ضحية له، ثم استخدم المسلمون المتجنقات والقذائف النارية لمدة شهرين على فترات متقطعة، وواجهوا مشكلة نقص المواد الغذائية واضطروا لأكل الميتة التى ارتفعت أثمانها، ومع ذلك فقد خشى زعيم وقائد الجيش الملتانى من العواقب، فعبر الحدود السندية ووصلا إلى منطقة كشمير، ولم تكن قد فتحت بعد.

وأخيرا تمكن المسلمون من هدم أسوار المدينة بعد رميها بقذائف والمنجنيقات ودخلوها وقتلوا جندها، فقتلوا منهم ٦٠٠٠ جندي وأسروا الكثيرين ومنح بن القاسم الأمان للتجار والصناع والزراع على أساس أنهم لم يشتركوا فى القتال، وفرد على السكان جزءا من خسائر ونفقات فتح المدينة بلغت قيمته ستين ألف درهم غير ما فرض عليهم من الجزية والخراج، وتلك هى المرة الأولى التى يكلف فيها السكان الأصليون بتحمل قسم من نفقات.

وهناك زاوية أخرى تتعلق باستسلام أهل الملتان تقول أن هؤلاء قاتلوا المسلمين بضراوة، ولكن المسلمين حاصروا المدينة أياما شديدة لاقوا خلالها الأهوال حتى نفذ زادهم واضطروا لأكل الحمير، ثم جاء رجل مستأمن فدلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه أهل المدينة وكان ذلك الماء يأتى من نهر اسمه "بسمه" فيصير فى مجتمع له يشبه البركة أو الحوض داخل المدينة، عندئذ أمر ابن القاسم بتغويز (بتعميق) مجرى ذلك الماء وإقامة خزان يتجمع فيه كيلا يصل إلى سكان المدينة فعطش المحاصرون بشدة ونزلوا - لهذا - على حكم ابن القاسم فقتل من رفضوا الاستسلام من حملة السلاح، وحصل المسلمون على ذهب ومغانم كثيرة جمعت فى بيت حجمه عشرة أذرع فى ثمانية يلقى إليه من كوة فى وسطه وهذا هو السر وراء تسمية الملتان باسم "بيت أو ثغر الذهب".

ومن طريف ما يروى أن رجلا برهاميا أتى محمد بن القاسم وذكر له أن أحد حكام الملتان فى القديم بنى حوضا شرقى المدينة مساحته مئة متر، وبنى فى وسطه بيتا لصنم يعبد، مساحة ذلك البيت خمسين مترا مربعا، والصنم نفسه عبارة عن تمثال من الذهب الخالص يمثل رجل له عينان من الياقوت الأحمر، وأضاف الرجل أن هناك حجرا عند موضع الصنم تحته كنز، فدخل بن القاسم المكان وأمر برفع التمثال فوجد تحته ثلاثة عشر ألف ومائتين منا من الذهب، أضيف إلى ما حصل عليه المسلمون من أموال ومجوهرات.

وتذكر بعض المصادر العربية أن صنم الملتان هذا كانت تقدم له النذور، وكان طائفة البراهمة في السند والهند يقصدونه للحج، فيطوفون به ويحلقون لحاهم ورؤوسهم عنده ويزعمون أن ذلك الصنم هو النبي أيوب وكان على صورة إنسان كبير متربع طوله مائة ذراع، يلبس جلدا أحمر لا يظهر منه إلا عينيْن عبارة عن جوهرتين وعلى رأسه تاج أو إكليل ذهب مرتفع على كرسي تحيط بيديه قبة عظمى وحوله بيوت سنده البالغين ستة آلاف.

وكان الصنم نفسه بعد فتح الملتان ورقة رابحة في أيدي المسلمين من الناحية السياسية، فكان كلما رغب ملك هندي في الهجوم على هذه المنطقة، هدده المسلمون بكسر ذلك الصنم، فيرجع من حيث أتى إجلالا لهذا التمثال المقدس الذي لا يقيم العسكر في بلده لما له من قداسة. فالملتان كما رأينا لم تكن مدينة عادية، بل كانت عاصمة كبرى يحج الناس إليها، ولهذا فقد فتحت عنوة لأن المقاومة فيها كانت مقاومة البوذية المتمسكة بتقاليدها وأمجادها.

ومهما يكن من أمر فقد اتبع ابن القاسم في هذه المدينة ما أتبعه في المدن الأخرى من حيث التنظيمات المالية والإدارية والعسكرية، فعين الحكام على كورها المختلفة، وترك بها حامية من الجنود وبنى بها مسجدا جامعاً، وأخذ العهود والمواثيق على أعيان المدينة بأن يعملوا على أمر واستقرار ورفاهية شعبها، ثم أرسل ما حصل عليه من مغانم وأموال على متن سفن في حراسة مسلحة إلى الحجاج عن طريق ميناء الديبل، مع رسالة تفصيلية تشرح ما تم من فتح الملتان وتنظيم أمورها.

وكان والى العراق والإمارات الشرقية قد كتب لابن القاسم وهو بمدينة الملتان يقول:

" إني قد كتبت إلى أمير المؤمنين الوليد أضمن له رد ضعف نظير ما أنفقته من بيت المال فأخرجني، من ضمانى . "

وكانت نفقات جيش فتح السند والمثلتان قد وصلت إلى ٦٠ ألف ألف (٦٠ مليون) درهم، ولما أحصى الحجاج ما وصل إليه من القائد الفاتح وجده ١٢٠ ألف ألف (١٢٠ مليون) درهم، فقال: شفينّا غيظنا، وأدركنا ثأرنا وزدنا ستين ألف ألف (٦٠ مليون) ورأس داهر " كل ذلك دون أن يغرم الأهالي شيئاً أو تفرض عليهم ضرائب جديدة.

يعلق بعض الباحثين على ذلك فيقول:

إنه ليس مستغرباً أن يحرص الحجاج على جمع الثروة ما أمكنه، مثله في ذلك مثل أى فاتح آخر، وفي هذه الحالة خاصة فإن والى العراق كان عليه أن يحترم وعده للخليفة، برد نفقات هذه الحملة لخزينة الدولة، وكان ما منحه من حرية العبادة كفيلاً بجلب الجزية والضرائب الأخرى، ولهذا فإن الحياة الدينية في الهند بقيت على نهجها القديم تقريبا، بل إن معابد البراهمة أعيد بنائها، وأصبحت العادات القديمة مسموحاً بها، وقد وثق المسلمون في الكثيرين من غير المسلمين، وعهدوا إليهم بالأعمال الإدارية، وأصدر إليهم بن القاسم تعليماته بأن يتعاملوا مع الشعب في احترام وأمان وأن يكونوا صلة طيبة بينه وبين الحاكم، وعليهم تحديد مقدار الجزية وفقاً لمقدرة الشخص، ولتكن من الغنى ٤٨ درهماً ومن متوسطى الحال ٢٤ درهماً، و١٢ درهماً من الطبقات الدنيا، أما النظام الإدارى فقد استمر معمولاً به دون تغيير. كما سيأتى.

وكان في نية بن القاسم أن يواصل مسيرته نحو بلاد " كشمير " موطن البقية الباقية من أمراء السند وأعوانهم من المتمردين، وبؤرة الخطر بالنسبة للبلاد حديثة العهد بالإسلام، وربما رغب في نشر الدعوة الإسلامية في الهند أيضاً، لولا خبر وصله، وكان سبباً في قلب مخططاته كلها، ألا وهو خبر وفاة الحجاج سنة ٩٥ هـ. الشيء الذى جعله يرجع إلى العاصمة " آرور " لمتابعة الأحداث في ظل الظروف الجديدة من هناك، خاصة وقد تلقى أمراً من الخليفة الوليد بن الوليد الملك

بأن يوقف تقدمه، لأن الخليفة كان يعتمد فى هذا الجانب على الحجاج وما كان يقوم به من متابعة واعية .

ومع ذلك فإن الأوضاع الجديدة لم تمنع ابن القاسم من العناية بالمناطق المفتوحة والنظر فيما يصلحها، ولم تحل وفاة الحجاج بينه وبين أداء مهمته، فبعد أيام قضائها فى الراحة واستقبال وفود العزاء، أرسل وحدا من قواده لإخضاع مدينة " البيلمان " وهى من المدن الصغيرة التابعة لإقليم " أرور " فاستسلمت بدون قتال ثم أرسل آخر إلى مدينة صغيرة بنفس المنطقة اسمها " سرست " حيث يقيم قبائل " الميد " المعروفين بقطع الطرق البرية ونهب السفن، فتعهد هؤلاء بالطاعة والعمل على سلامة الطرق البرية، وقبل المسلمون ذلك منهم .

فتح الكرج:

ثم قام ابن القاسم بحملة على الكيرج (الكورج) على الحدود السندية الهندية. وكان يحكمها " داهر " أحد أقارب الملك " داهر " وقد خرج على رأس جيش كثيف لمقاتلة المسلمين، ولكنه قتل وانهزم جيشه، وأمر ابن القاسم بقتل المسلحين وضرب الرق على الباقيين، وقال على الباقيين، وقال أحد الشعراء فى قتل " داهر " :

نحن قتلنا داهرا ودوهره والخيل تردى منسرا فمنسرا

وكان الأمير " جيسية " قد فر إلى الكرج آخر الأمر، ثم لجأ إلى كشمير بعد أن دب الخلاف بينه وبين حاكمها " دوهر " ، وبقي هناك يتحين الفرص، وقد تمكن من العودة إلى السند واستولى على إقليم " برهمناباد " وحكمه عدة سنوات بعد مقتل محمد بن القاسم، وظل يتولى أمر ذلك الإقليم إلى أن تم إخراجه منه والقضاء عليه سنة ١١١هـ = ٧٢٩ م .

وبفتح المسلمين لإقليم الكرج، أصبحت لهم السيادة على المناطق الواسعة بين الملتان وبلاد كشمير، وقد توجه بن القاسم إلى كشمير وعين عليها حاكما

وترك بها حامية عسكرية ورغب في مطاردة الأمير جيسية ومحمد العلافى وبعض أمراء السند الذين لجأوا إلى هذه البلاد، وكونوا بها جبهة قوية تعادى الدولة الإسلامية، ولكنه قرر صرف النظر عن منطقة كشمير مؤقتا حتى يتم له فتح إقليم " قنوج " الذى يتبع السند سياسيا ويقع على حدودها مع بلاد كشمير .

فتح قنوج:

ذلك أنه عندما كان قائد المسلمين فى مدينة الكيرج أرسل من هناك جيشا من عشرة آلاف فارس يقوده أبى حكيم الشيبانى إلى مدينة قنوج Kanyj فى أقصى حدود الملتان - لفتحها ودعوة أميرها إلى قبول الإسلام أو الدخول فى طاعة المسلمين ودفع الجزية، ولما وصل الجيش الإسلامى إلى موضع يقال له " أودهاير " بالقرب من العاصمة أرسل قائده مبعوثا إلى الأمير يبلغه مضمون رسالة بن القاسم إليه ويبلغه بأن كل بلاد السند وحكامها قد خضعوا للحكم الإسلامى، وأن بعضهم قد أسلم وبعضهم قد وافق على دفع الجزية، ولكن حاكم " قنوج " أبى الاستسلام بزعم أن آبائه وأجداده يحكمون هذه البلاد منذ حوالى ألف وستمئة سنة وأن علاقته بجيرانه قوية وأنه يرفض الخضوع للغير، إزاء هذا الموقف لم يكن بد من القتال .

وقد تحرك محمد بن القاسم بنفسه إلى الكيرج ووصل إلى " أودهاير " وعزم على فتحها وأستعد لدخولها، وبينما هو على أتم الاستعداد لذلك كخطوة أولى نحو الوصول إلى كشمير وإتمام فتح كل السند والهند، وصله أمر الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك بعزله عن بلاد السند شخصية، بل والقاء القبض عليه وإرساله مصفدا إلى بلاد العراق فلم يتمكن بسبب ذلك من فتح " قنوج " لذلك لم يذكر " البلازرى " لذلك عنها شيئا، واعتبر أن " الكرج " هى آخر مدينة فتحها ابن القاسم على الحدود السندية الهندية . وقد وصل الإسلام إلى " قنوج " بعد ذلك، يشير إلى ذلك المسعودى - الذى زار الهند فى مطلع القرن الرابع الهجرى - حين يقول: " وليس من ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه

مثل البلهرى (أمير قنوج) فالإسلام فى ملكه عزيز مصون وله مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعدا، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين.

نهاية ابن القاسم:

ونعود مرة أخرى لتتابع تطور الأحداث ونتعرف على ما جرى لابن القاسم. أشرنا إلى أن الحجاج مات سنة ٩٥هـ= ٧١٣م بعد أن حكم العراق والولايات الشرقية باسم الدولة الأموية حوالى عشرين عاما، وبعد وفاته بستة أشهر توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ= ٧١٤م وتولى الأمر من بعده أخوه سليمان، فولى على العراق والأمارات الشرقية واحدا من أشد أعداء الحجاج وهو صالح بن عبد الرحمن، وكل هذا كان كارثة بالنسبة لمحمد بن القاسم أثرت على جهوده فى شبه القارة الهندية مثلما كان الحال بالنسبة لآخرين فى مناطق الفتح الإسلامى الأخرى.

ولنوجز هنا مبررات ما حدث:

أراد الوليد بن عبد الملك أثناء خلافته نقل ولاية ما لعهد من أخيه سليمان ابن عبد الملك إلى ابنه، وقد أيد الحجاج فكرة الخليفة عن عزل سليمان وحرمانه، واستطاع أن يحصل على موافقة الولاة والقواد فى المناطق الشرقية التابعة له، وابن القاسم واحد منهم، ولم يكن فى وسعه إلا الموافقة، لأنه لم يزد عن أن يكون تابعا وأحد رجالات الحجاج، وما كان يعنيه بالدرجة الأولى هو أن يتفرغ لمهمته ويتمكن من تبليغ رسالة الإسلام للسكان فى منطقة شبه القارة الهندية، وقد شاءت إرادة الله أن يموت الحجاج والخليفة الوليد قبل أن يتم لهما ما أراد من نقل ولاية العهد إلى ابن الخليفة وحجبها عن أخيه سليمان، وقد تولى سليمان رسميا أمر الدولة، وكان أول شىء فعله هو عزل الولاة والقواد الذين عينهم الوليد والحجاج،

وتسليط والى العراق الجديد ضد من ينتمون إلى الحجاج بصفة خاصة لقد كان عليه أن يلتقى بهم فى غياهب السجون ويعذبهم أشد العذاب برغم ما قدموه للدولة من خدمات .

ينقل الطبرى - فى نفس حوادث سنة ٩١٦هـ - عن الهلوث الكلبى قال :
كنا بالهند مع محمد بن القاسم فقتل الله " داهرا " وجاءنا كتاب من الحجاج أن
أخلعوا سليمان، فلما ولى سليمان جاءنا كتاب سليمان أن ازرعوا واحرثوا فلا
شأم، فلم نزل بتلك البلاد حتى قام عمر بن عبد العزيز فأقفلنا .

لقد كان والى الجديد موتورا من الحجاج، لأنه قتل أخاه آدم ابن عبد
الرحمن بسبب إيمانه بمبادئ وآراء الخوارج، فأراد صالح بن عبد الرحمن الانتقام
من الحجاج فى شخص قادته وأتباعه خاصة صهره وابن أخيه محمد بن القاسم،
وقد ولى على بلاد السند يزيد بن أبى كبشة السكسى، فقام هذا بإلقاء القبض على
ابن القاسم بناء على أمر الخليفة وواليه، وصفده فى الأغلال وبعث به ليسجنه
صالح بن عبد الرحمن فى مدينة واسط، فتمثل ابن القاسم بقول القائل :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد

وكان ابن القاسم قد استولى على قلوب الناس فى شبه القارة مسلمين وغير
مسلمين، لما تميز به من خلق قويم وسلوك ممتاز، وقد نصحه البعض بالا يرحل
إلى بلاد العراق، ولكنه أبى، لأنه لا يستطيع مخالفة أمر الخليفة الواجبة طاعته،
وقد يشفع له عنده ما قدمه من خدمات جليلة للدولة الأموية ولدين الله، ولكن
والى العراق غدر به وألقاه فى غياهب السجن المظلم الرطب مكبلا بالحديد، فتألم
ابن القاسم وأثر فى نفسه أن يلتقى جزاء " سنمار " وقد عبر عن ذلك فى شعر قاله
أثناء وجوده بالسجن منه قوله :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت فتىلا

ومنه :

لو كنت أجمعت الفرار لو طئت إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عك على أمير
ولا كنت للعبد المزونى تابعا فيالك دهر بالكرام عثور
وقد واصل الوالى تعذيبه ، ضمن رجال من آل أبى عقيل ، إلى أن قتله تحت
وطأة التعذيب الشنيع ، ثم بعث برأسه إلى دمشق .

وكما ودعته جموع أهل السند ، شاعرة بالأسف الشديد ، لمغادرته بلادهم
عائدا إلى العراق ، فإن دموعهم تساقطت بغزارة عندما وصل إليهم خبر مقتله ،
وبكوا فيه الرجولة والشهامة والخلق الإسلامى الأصيل والشباب المتألق ، وتخليدا
لذكراه أقاموا له تمثالا فى مدينة الكبرج ، لما قدمه من خدمات جليلة لهذا البلد .

وإن المرء ليعجب ما ينقضى له عجب ، كيف تنتهى حياة ذلك الشاب بهذه
الصورة المريعة ، وهو الذى فتح كل بلاد السند ، ونشر الإسلام فى كافة أرجائها فى
فترة قياسية لم تتجاوز السنوات الثلاث ؟ كيف يواجه محمد بن القاسم هذا المصير
المؤلم ويجزى كل ذلك الجزاء المهين ؟!!!

لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسة عظمة الاسكندر وشهرته ، إذ بينما
عجز الاسكندر قبل ألف عام عن الاستيلاء على قسم ضئيل من الهند ، كان سكانه
أقل من ربع السكان زمن ابن القاسم ، استطاع هذا الفتى أن يخضعها ويلحقها
بالإمبراطورية الإسلامية من غير كبير عناء وقد قال مؤرخ انجليزى " لو أراد ابن
القاسم أن يستمر بفتوحاته حتى الصين لما عاقه عائق " ولم يتجاوز أحد من الغزاة
فتوحاته إلى أيام الفزنويين " لقد كان واحدا من عظماء الرجال فى كل العصور " .

إن رجلا قدم عشر معشار ما قدم ابن القاسم لابد وأن يكرم ويمنح خلع
التشريف والإكبار ويرتفع إلى أعلى عليين ، ولكن المؤلم حقا أن يسجن ويعذب
لدرجة إزهاق الروح وهو الذى مهد السبيل أمام الدعوة الإسلامية ، وحملها فى

إخلاص وتفان إلى الناس فى شبه القارة الهندية، تماما مثلما حدث مع من عرف القارة الأوروبية بالإسلام ونشرة فى نواحي الأندلس، أعنى القائد المسلم موسى بن نصير بل يقال إن ابن القاسم وضع فى ر أديم بقرة، ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق، وأن روحه فاضت فى الطريق.

إن نهاية الأبطال ما كان ينبغى أن تكون هكذا دون جريرة أو ذنب اللهم إلا حب الإسلام والإخلاص له والتفانى فى سبيله، والولاء لأصحاب السلطان الشرعى من خلفاء بنى أمية.

ومهما يكن من أمر فقد توقفت الفتوحات فى جبهة السند بمجرد مغادرة ابن القاسم للبلاد، وانكمش المسلمون فى المناطق التى تم فتحها من قبل وتركت الأوضاع السياسية السيئة فى عاصمة الخلافة تأثيرها على الاستقرار والأمن فى شبه القارة الهندية فقامت الثورات والفتن فى بعض المناطق التى خضعت للمسلمين، وحاول بعض أمراء السند الذين كانوا قد فروا إلى كشمير وغيرها العودة إلى البلاد، ونجح بعضهم فى استعادة سلطانه ونفوذه، مستفيدا من الاضطرابات الداخلية فى العالم الإسلامى، فتمكن جيسية ابن داهر مثلا من العودة إلى برهمان آباد حسبما يرى البعض.

بل إنه بعد موت ابن القاسم، لم يبق تحت سيطرة المسلمين إلا من ديال بور Debalpur إلى بحر السلت " الملح " Saltsea .

وهذا سمح لباحث مثل " إشوارى براصاد " أن يقول:

أنه كان من المستحيل أن يجد المسلمون حكما مستقرا فى الهند، ذلك أن الملوك كانوا لا يزالون يسيطرون على ممالك هامة فى الشمال والشرق ولم يكن هؤلاء مستعدين لترك بوصة واحدة من الأرض لأى أجنبى يحاول غزو أراضيهم، ولهذا فإن المحافظات المختلفة بدأت تترك الإسلام تدريجيا، وكانت محافظة السند تنقسم إلى عدة دول تعتبر مستقلة من الناحية العملية.

كذلك ساعد بروز العصبية القبلية، وانشغال العرب فى الخلاف فيما بينهم على، توقف حركة الفتح الإسلامى بتلك المناطق، مثلما حدث من خلاف وعصبية فى مناطق الدول الإسلامية الأخرى.

كذلك دخل العرب البلاد من اتجاه خاطئ، فالسند لم تمنحهم المصادر اللازمة لفتح بقية بلاد الهند أضف إلى ذلك أن ولايات السند كانت مجذبة وضعيفة الخراج نسبيا إذا قورنت بغيرها، وكانت لا تزال تحيط بها من الشمال والشرق إمارات قوية يحكمها الهنادكة، كذلك تمكن رجال الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة وقرامطة وإسماعيلية من الوصول إلى تلك البلاد - فيما بعد - لهذا كله انكمشت أملاك المسلمين، ولم يبق لهم إلا الملتان والمنصورة... ولا بد من الإشارة إلى أن الفتح العربى للسند لم يكن عسكريا فحسب، بل - كما حدث فى الجبهات الأخرى - تنقلت العشائر العربية إلى هناك، وحمل العرب إلى البلاد نفس أسلوبهم فى الحياة ونفس نزاعهم القبلى التقليدى، كما انتشرت الثقافة العربية من المدن التى ستؤسس فيما بعد - مما ساعد على نشر العربية والإسلام - بل هاجرت إلى الهند نفس الصور الفكرية التى طبعت العالم الإسلامى فى القرن الأول الهجرى كما انتقلت إليها فرق ودعايات الخوارج والشيعة كما أشرنا أنفا.

والآن نحاول التعرف على الولاة الذين وفدوا إلى هذه المنطقة فى عهد الدولة الأموية.
